د. مجدي الهلالي

فلنبدأ بأنفسنا

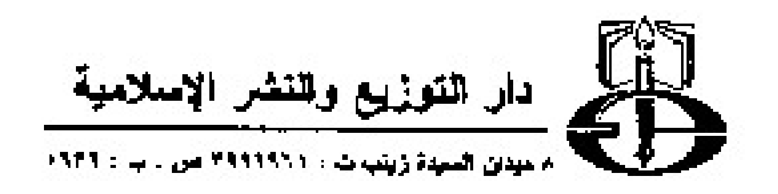
فلنبدأ بأنفسنا

د. مجدي الهلالي

دار التوزيع والنشر الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد

فمنذ فترة ليست بالقصيرة والكثير منا يشعر بمرارة شديدة لا تكاد تفارقه بسبب ما نرى ونسمع عن كوارث متلاحقة تصيب المسلمين في كل مكان. فلقد اشتد الظلام، وازداد حال الأمة سوءا، وما توقف يوما سيل دماء المسلمين، واشتد صراخ اليتامىٰ، وبكاء الثكالى، وأنين المعذبين.

وازدادت المرارة في الحلق، وما صار للحياة طعم.

فهل من نهاية لما نحن فيه؟!

هل لهذا الليل من آخر؟!

هل تأخر الفجر فما ينبغي لأحد أن ينتظره؟!

لقد دعونا الله كثيرا: في قيامنا وسجودنا، في ليلنا ونهارنا بأن يرفع سبحانه وتعالىٰ عنا ما نحن فيه، فما تغير حالنا، وما زلنا نتجرع كؤوس الذل والهوان.

وتساءلنا.. متى نصر الله؟؟!

فكانت الإجابة بأن وعد الله لا يتخلف، ولقد وعد الله عباده بالتمكين في الأرض قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1].

ولكن هل يصلح جيلنا لتلقي نصر الله؟ وهل ينطبق حالنا مع حال عباد الله الذين وعدهم الله بالتمكين في الأرض؟!

نظرت إلي نفسي باحثا عن الإجابة فوجدت واقعا يبتعد كثيرا عما يريده الله من أهل نصره. فلقد تجلت أمام عيني تلك الفجوة الواسعة بين نظريات الإسلام ومعانيه التي نقرأ ونسمع عنها وبين واقعي وما آل إليه حالي. ثم نظرت فيمن حولي فوجدت واقعا افضل

(١) سورة الأنبياء (١٠٥).

من واقعي ولكن ظلت تلك الفجوة موجودة باتساعها. ومما يزيد الحسرة والألم أن هذه الفجوة تزداد اتساعا يوما بعد يوم.

فما السبيل للوصول بأنفسنا إلي مستوى جيل النصر والتمكين؟

سألنا وبحثنا فوجدنا أن البداية تتمثل في التحديد الدقيق لعللنا وامراضنا، وعلىٰ ضوء هذا التحديد يكون العلاج.

او بعبارة أخرى: إن الله عز وجل قد وضع شروطا لنصرة عباده من استكملها صار أهلا لتلقي هذا النصر.

هذه الشروط قد استكملتها أجيال سابقة فمكنها الله في الأرض.

فإذا ما أردنا أن نكون مثل هؤلاء فلنبدأ بما بدأوا به...

وهذه الصفحات ما هي إلا محاولة ألقيت فيها الضوء على ما أجملته في هذه المقدمة.

فتحدثت في الفصل الأول عن شروط النصر.

وفي الفصل الثاني ذكرت الكثير من صفات عباد الله المؤهلين لتلقي نصره، وتحدثت في الفصل الثالث عن واقعنا وما آل إليه حالنا.

وكان تصور العلاج في الفصل الرابع.

أما الفصل الخامس ففيه بعض وصايا المربين.

وأخيرا ختمت الكتاب بنموذج لورد محاسبة النفس.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء الصراط.

* * *

الفصل الأول

شروط النصر

الفصل الأول

شروط النصر

إن المتأمل لآيات القرآن يجد أن الله عز وجل قد وضع شرطا أساسيا لنصره المسلمين علىٰ أعدائهم، وتمكينهم في الأرض هذا الشرط هو نصرتهم له.

يقول عز وجل: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[١] ويقول ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[٢].

ولكن علىٰ أي شيء ننصر الله عز وجل؟!

يقول تعالىٰ ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا**

فالله عز وجل يطالبنا بأن ننصره علىٰ نفوسنا لنكون أهلا لكي ينصرنا علىٰ أعدائنا ويمكّن لنا في الأرض.

فالعبد ـ كما يقول شيخ الإسلام عبد القادر الكيلاني - بين الله ونفسه إن نصر نفسه صار عبداً لها، وإن نصر الله كان عبداً له.

فالنفس هي ميدان المعركة، ولولا وجودها لصرنا كالملائكة.

طبيعة المعركة:

إن المعركة بين العبد ونفسه هي أكبر وأعنف معركة في الوجود، وعلىٰ ضوء نتيجتها يتحدد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.

فمن الناس من أسلم زمام قلبه لنفسه وصار تابعا لها تسيره كيفما شاءت، ومنهم من أعلن الجهاد ورفع رايته حتى تمكن من أسر نفسه فصارت تابعة له، فهذا هو العبد الحقيقي لله.

الأول
نصر
ن الله عز وجل قد وضع شرطا
هم، وتمكينهم في الأرض هذا
ـرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
ينصرنا علىٰ أعدائنا ويمكّن لنا في الأرض.
فالعبد ـ كما يقول شيخ الإسلام عبد القادر الكيلاني - بين الله ونفسه إن نصر نفسه صار عبداً لها، وإن نصر الله كان عبداً له.
فالنفس هي ميدان المعركة، ولولا وجودها لصرنا كالملائكة.
طبيعة المعركة:
إن المعركة بين العبد ونفسه هي أكبر وأعنف معركة في الوجود، وعلىٰ ضوء نتيجتها يتحدد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.
الفصل
شروط
إن المتأمل لآيات القرآن يجد
أساسيا لنصره المسلمين علىٰ أعدا
الشرط هو نصرتهم له.
يقول عز وجل: ﴿إن تـ

القلـــب :

القلب كما يعرفه العلماء هو مجموعة المشاعر والأحاسيس والوجدانات في الإنسان من حب وبغض وفرح وحزن وطمانينة وسكينة وجزع وخشوع وخشية ورجاء وهلع ورغبة ورهبة ورحمة وعطف وشفقة وحسرة وندم و..

يقول تعالى: ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[١].

ويقول: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾[٢].

ويقول عز وجل: ﴿ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾[٣].

ويقول ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[٤] ويقول ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾[٥] ويقول ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[٦].

(١) سورة الرعد (٢٨).
(٢) سورة الزمر (٤٥).
(٣) سورة الحديد (٢٧).
(٤) سورة آل عمران (١٥٦).
(٥) سورة التوبة (١٥).
(٦) سورة الحج (٣٥).

ويقول عز من قائل ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾[١].

فالقلب كينونة الإنسان، وهو الملك المطاع وغيره تابع له من عقل ونفس وجوارح فجميعها جنود له يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه.

فهو الذي يتخذ القرار وعليها التنفيذ، فإذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

يقول ﷺ في الحديث «... **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[٢].

والقلب هو مستقر الإيمان، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴾[٣].

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾[٤].

(١) سورة الأحزاب (٢٦).
(٢) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.
(٣) سورة الحجرات (١٤).
(٤) سورة المائدة (٤١).

- والقلب هو المكلف من قبل الله بأن يخضع مشاعره وأحاسيسه له، فيجعل حبه لله فلا يحب أحداً لذاته فالمحبوب لذاته هو الله عز وجل فقط، وأي شخص يُحب فمن أجل الله عز وجل.

كذلك لا يبغض أحداً إلا لأن الله يبغضه، ولا يفرح إلا بفضل الله كما قال تعالى ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾(١).

ولا يحزن إلا من تقصيره في جنب الله، ولا يرجو إلا الله، ولا ينيب إلا إليه، ولا يخشى سواه، ولا يخشع إلا له، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يتحاكم إلا إليه، ولا يخاصم إلا به، وهكذا في بقية المشاعر وبقدر إخضاع المشاعر لله تكون العبودية له، فأكمل الناس عبودية من كانت مشاعره كلها لله.

- وللقلب بصيرة يبصر بها إذا تعهدها العبد وصقلها بصورة مستمرة أبصر بها طريقه إلي الله، أما إذا تركها بدون تعهد فمصيرها الطمس بدخان المعاصي فيعمي القلب كما قال تعالى ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾(٢).

(١) سورة يونس (٥٨).

(٢) سورة الحج (٤٦).

فعمى القلوب ما هو إلا نتيجة للمعاصي المتراكمة والمستمرة والتي لم يحاول صاحبها أن يغسلها بالتوبة النصوح، فيزداد دخان المعاصي على مرآة القلب وبصيرته حتى تطمس ويعلوها الصدأ والران كما قال تعالى ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾(١).

النفس:

خلق الله لكل عبد من عباده نفساً أمارة بالسوء ليختبر مدى صدق عبوديته له، وجعل من أهم صفاتها الجهل والظلم والشح، فهي تميل إلى الشر، وتفر من الخير، ولا تحب المشقة لذلك فهي تكره أي تكليف.

تحب أن تأخذ حظها من كل فعل يفعله العبد، وأسمى حظ للنفس شعورها بالعلو والرفعة عمن حولها، لذلك فهي تعمل على إخضاع القلب وتجنيد مشاعره لخدمة حظوظها، ويقف الشيطان من خلفها مستغلا جهلها وشحها فيزين لها الأفعال التي تستوفي بها حظوظها الظاهرة والخفية، فتلح على القلب ليأمر الجوارح بتنفيذ ما تريده وتهواه، ولأنها محبوبة وما تدعو إليه محبوب يذعن القلب البعيد عن الله لها، فلا يحب العبد شيئا إلا لنفسه، ولا يخاصم -

(١) سورة المطففين (١٤).

إلا انتصاراً لها، ولا يعادي إلا من يعاديها.

يفرح لما تفرح به، ويحزن لما تحزن به، يرجو ما ترجوه، ويخشى ما تخشاه، وهكذا في كل المشاعر حتى يتم أسر القلب فيصير عبداً مطيعاً لها، ينفذ أوامرها، ويسير في ركاب هواها.

- فالنفس امارة بالسوء ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١).

وهي شحيحة تحب ان تستاثر بكل الخير ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وقال ﷺ **(إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)**(٣).

وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له. فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، وإذا الرجل

(١) سورة يوسف (٥٣).
(٢) سورة الحشر (٩).
(٣) أخرجه مسلم والإمام احمد عن جابر بن عبد الله.

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه(١).

الهوى:

الهوى كما يعرفه العلماء هو ما تميل إليه النفس، وكل نفس لم يروضها صاحبها بالمجاهدة، تهوى الراحة والشهوات، سواء كانت حسية مثل شهوة الطعام والشراب والجماع وجمع المال و.. أو معنوية من حب الرفعة ورؤية الناس لها في مواطن الحمد، وكراهية رؤية الناس لها في مواطن الذم، وتهوى الشهرة وأن يشار إليها بالبنان.

تحب النجاة وتكره أن تُلام أو تُخطأ... تحب الرفعة عن غيرها وتكره أن يتفوق عليها أحد.. تحب ان تُطاع ولا تحب ان تطيع.

خطورة اتباع الهوى:

لو لبى الإنسان كل ما تطلبه نفسه وهواها، لسار بها إلى الهلاك لا محالة، فلن يقيم فريضة لأن نفسه تكره التكليف وتحب الراحة، فإن كان في قلبه بقية من إيمان وأقام الفريضة فإن نفسه لا تترك عمله يصعد خالصا إلى الله دون أن تأخذ نصيبها منه، فتجعله إما يرائي به، أو يتكبر به على غيره فيظن انه افضل من غيره بهذا العمل، أو يُدل

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧٥.

به علىٰ الناس بأن يرى لنفسه مكانة بهذا العمل عند الناس، أو يُدل به علىٰ الله بأن يرى لنفسه منزلة بهذا العمل عند الله.... وفي النهاية تأخذ نفسه حظها كاملا من ذلك العمل.

ولن يبالي الإنسان من أي وجهة جمع ماله فكل همه إرضاء نفسه وإشباع رغباتها في جمع المال.

وسيطلق لبصره العنان بل ولفرجه أيضا، وسيملأ بطنه بكل ما تشتهيه نفسه دون نظر إلىٰ حلال أو حرام.

فما من معصية يقترفها العبد إلا بسبب الجهل أو الهوى.

فالذي يكذب لينجي نفسه في الحال ما فعل ذلك إلا اتباعا لهوى نفسه في حب النجاة وخوف الملامة: والذي يسرق يتبع هوى نفسه في حب جمع المال وإنفاقه علىٰ شهواتها.

والذي يرائي يتبع هوى نفسه في حبها للرفعة في أعين الناس.

بل إن أي تقصير في أداء الفروض والطاعات ما هو إلا نتاج اتباع الهوى.

فما تثاقل المرء حتى فاتته صلاة الجماعة إلا بسبب اتباعه لهوى نفسه في حب الراحة، وما تأخر علىٰ الجماعة حتى فاتته تكبيرة

الإحرام - بلا عذر - إلا باتباع هوى نفسه أيضا.

وما ترك المرء الصوم إلا طلبا لراحة نفسه؛ وما ترك قيام الليل إلا اتباعا لهوى نفسه من حب الراحة وكراهية المشقة، وما أفتى عالم بفتوى تخالف ما أجمع عليه العلماء - وهو يعلم بذلك - إلا اتباعا لهوى نفسه من حب الرفعة عند الحاكم أو خوفه علىٰ نفسه مما قد يصيبه إن جهر بالحق وأفتى علىٰ غير ما يريده صاحب السلطان.

القرآن يذكرنا بخطورة اتباع الهوى:

ولقد نبهنا القرآن في مواطن كثيرة إلىٰ خطورة اتباع الهوى.

يقول عز وجل ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** ﴾(١).

فالذي يسير وراء هواه هو بذلك يعبده ويتخذه إلهه لأنه يطيعه فيما يأمره به.

ويقول تعالىٰ ﴿ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾(٢) فعندما يُتبع الهوى يغفل القلب عن الله فينفرط عقد صاحبه.

(١) سورة الفرقان (٤٣).

(٢) سورة الكهف (٢٨).

ويقول تعالى ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[١] فما ظلموا إلا لأنهم ساروا وراء هواهم.

ويقول تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[٢] فعدم الاستجابة لداعي الهدى والحق ما هو إلا نتيجة اتباع الهوى.

ـ وما ضاع فتح من الله على عبد، وما سُلب عبد خيراً أصابه إلا بسبب الهوى كما في قصة بلعام ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث .. ﴾[٣].

ـ ويذكرنا القرآن بأن النفس وهواها يزينان للقلب فعل المعصية وإن كانت تلك المعصية في القتل، وإن كان هذا القتل لأقرب الناس كما جاء في قصة ابني آدم ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٤]

---

(١) سورة الروم (٢٩).
(٢) سورة القصص (٥٠).
(٣) سورة الأعراف (١٧٥، ١٧٦).
(٤) سورة المائدة (٣٠).

وفي قصة يوسف عليه السلام يواجه يعقوب ـ عليه السلام ـ أبناءه بما فعلوه مع أخيهم يوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾[١].

ـ بل إن النفس قد تسول لصاحبها الإشراك بالله عز وجل بل وتزين للناس هذا الشرك، ففي قصة موسى عليه السلام والسامري ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾[٢].

وما عقر ثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ الناقة وكذبوا نبيهم إلا اتباعا لهوى نفوسهم التي طغت عليهم يقول تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾[٣].

حقيقة ظلم النفس:

كما ذكرنا أن من صفات النفس الجهل فهي تريد أن تلبي طلباتها

---

(١) سورة يوسف (١٨).
(٢) سورة طه (٩٥، ٩٦).
(٣) سورة الشمس (٧ – ١١).

في الحال دون النظر إلى العواقب، والعبد عندما يتبع هوى نفسه يظلمها أيما ظلم وهو لا يدري، فهو حين يلبي لها طلباتها في العاجل ظناً منه أن ذلك يسعدها، يحكم عليها بالهلاك في الآجل.

والعبد الذي يريد الخير لنفسه يمنع عنها هواها، فهو حين يعارضها ويمنع عنها ما تشتهيه في الدنيا، يريد لها السعادة الدائمة في الآخرة.

ففي قصة آدم وزوجه عليهما السلام حين استمعا إلى إبليس وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها فبدت لهما سوءاتهما وشعرا بحجم الذنب الذي ارتكباه: **﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[1].

وفي قصة موسى عليه السلام **﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**[2].

(١) سورة الأعراف (٢٣).
(٢) سورة القصص (١٥، ١٦).

وفي قصته مع بني إسرائيل **﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾**[1].

وفي قصة صاحب الجنتين **﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾**[2].

ويقول تعالى **﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾**[3].

ويقول **﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[4].

ويقول تعالى **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾**[5].

دور الشيطان:

جعل الله لكل عبد من عباده قرينا أو شيطانا، ودور هذا الشيطان في المعركة الدائرة بين العبد ونفسه دور خطير، فهو وإن كان ليس له

(١) سورة البقرة (٥٤).
(٢) سورة الكهف (٣٥).
(٣) سورة البقرة (٢٣١).
(٤) سورة آل عمران (١١٧).
(٥) سورة آل عمران (١٣٥).

سلطان مباشر على العبد، لكنه يستغل جهل النفس وولوعها باستيفاء حظوظها فيزين لها الأفكار والأعمال التي توافق هواها، ويلح في الوسوسة والتزيين فتستجيب له، فتلح بدورها على القلب حتى يذعن لها ويتخذ القرار الموافق لهواها. لذلك حذرنا ربنا من اتباع الشيطان وبين لنا أنه يزين للنفس الفعل في خطوات وبالتدريج وليس في خطوة واحدة لكيلا يقابل بمقاومة شديدة. يقول تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾(١).

ويذكرنا ربنا بدور الشيطان فيقول عز وجل ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾(٢).

ويقول ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾(٣).

ويقول تعالى ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا** ﴾(٤).

(١) سورة النور (٢١).
(٢) سورة العنكبوت (٣٨).
(٣) سورة النساء (١٢٠).
(٤) سورة الأعراف (٢٠).

وينبهنا القرآن على أن الشيطان في اللحظات الحاسمة وبعد أن يزين للمرء سوء عمله حتى يقع فيه، يتخلى عنه ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾(١).

﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾(٢).

ويوم القيامة يذكر الشيطان اتباعه بأنه ما كان له عليهم من سلطان، بل دعى أنفسهم إلى الشر فاجابته ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾(٣).

جنود القلب:

لم يترك الله عز وجل القلب وحده في الميدان يواجه النفس

(١) سورة الأنفال (٤٨).
(٢) سورة الحشر (١٦).
(٣) سورة إبراهيم (٢٢).

وهواها ومن خلقها الشيطان، بل أمده بالجند الناصحين، ومن أهم جنود القلب العقل.

فالعقل هو محل العلم، وهو يمثل سمع القلب، وعلىٰ قدر علم الإنسان النافع تكون قوة سمع قلبه.

يقول تعالىٰ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1].

فبالعلم يُعرف الضار من النافع والحلال من الحرام وبه تتقى الشبهات، يقول ﷺ في الحديث: «فضل العالم عل العابد كفضلي علىٰ أدناكم..»[2].

وكما أن الله عز وجل جعل لكل عبد شيطانا يزين له فعل المحظورات؛ جعل له أيضا ملكا يذكره بالخيرات.

قال ﷺ: «في القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق، ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم» ـ ثم تلا قوله تعالىٰ

(1) سورة فاطر (28).

(2) رواه الترمذي عن أبي أمامة وقال: حديث حسن.

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾[1].

القلب بين الطاعة والمعصية:

عندما يهم القلب بأداء طاعة معينة يقوم الملك الموكل به بتزيينها له، ويقوم العقل بحسب درجة العلم فيه بالترغيب في أدائها، وعندما يجد الشيطان أن القلب عازم علىٰ أداء هذه الطاعة فإنه يبدأ في الوسوسة للنفس لتلحّ علىٰ القلب لتختلق له المعاذير ليمتنع عن أداء هذه الطاعة.

فإن جاهد العبد نفسه وهواه وعزم علىٰ أدائها ورأى الشيطان منه ذلك فإنه لا يتركه، بل يوسوس للنفس لتستوفي حظوظها من هذه الطاعة، فقد تزين له اداءها أمام الناس ليروه فتكبر صورته في نظرهم فتنتشي النفس وتنتفخ لذلك فإن كانت الطاعة في الخفاء حسنت فعله لها بعد أدائها وزينته في نظره حتى يُعجب بها، وينسى أن الله عز وجل هو الذي أعانه عليها، فإن أعجب بفعله ساقته إلىٰ المقارنة بأقرانه ليرتفع بفعله عليهم فيتكبر ويغتر، وفي النهاية تكون النفس قد نالت نصيبها من الفعل، إن لم ينتبه العبد لذلك.

(1) أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود والآية في سورة البقرة (268).

فبمقدار ما يخلص من الطاعة لله يكون الأثر على القلب، فالعبد يصلي فلا ينال قلبه من هذه الصلاة إلا نصفها أو ربعها أو ثُمنها أو لا ينال منها شيئا، بحسب درجة إخلاصه لله فيها.

فالله عز وجل لا يريد من صلاتنا وصيامنا وسائر عباداتنا الحركات والجهد والمشقة فقط بل طلب عز وجل ما وراء ذلك من تقوى وخشية له قال تعالى ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾(١).

وقال تعالى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾(٢).

وقال ﷺ: «**رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»(٣).

فإن راءى الإنسان بطاعته فإن أثر هذه الطاعة لا يصل إلى شجرة الإيمان في القلب بل يصل إلى شجرة الرياء، فتسقى بهذا الأثر وتنمو

---

(١) سورة الحج (٣٧).

(٢) سورة البقرة (١٨٣).

(٣) رواه ابن ماجة واللفظ له، والنسائي وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري.

أمام مرآة القلب، فإن تكبّر بهذه الطاعة تنبت بأثرها شجرة الكبر أمام القلب، وإن تفاخر وتباهى واغتر بها نمت بذلك شجرة الغرور والعجب والنفاق، وإن لم يفعل ذلك بل أدى الطاعة وهو غافل شارد نمت بذلك شجرة الغفلة، وبمرور الوقت وبنسيان الإنسان لنفسه تنمو هذه الشجرات في قلبه وتكوّن حجبا كثيفة أمام مرآة القلب تمنع وصول الأنوار والإشراقات الربانية إليه فيصير القلب محجوبا عن الله.

فالإيمان ينمو في القلب بإخلاص الطاعة لله وبحسب درجة الإخلاص تكون قوة الإيمان، وكلما ازداد الإيمان في القلب ازداد الإشراق فيه وتمكن من الرؤية ببصيرته ومن سماع صوت العقل، ومن ثم يتمكن القلب من عبادة الله فيخضع مشاعره له فيتوكل عليه وينيب إليه ويخشاه ويرجوه وتهون الدنيا عليه ويتعلق قلبه بالآخرة و... أما إذا ضعف الإيمان في القلب ازداد استسلام القلب للنفس وازدادت الحجب بينه وبين الله فتسود المرآة وتطمس بصيرة القلب ويخفت صوت العقل وصوت الملك فلا يعود يرى إلا ما تراه نفسه، ولا يعود يسمع إلا ما تمليه عليه نفسه فيصبح حاله كما وصفه القرآن ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ**

الْغَافِلُونَ﴾[1].

يقول ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين، قلب أسود مرباداً كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض»[2].

ويوضح الإمام ابن القيم هذا الأمر فيقول:

(فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه..)[3].

(١) سورة الأعراف (١٧٩).

(٢) رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان، ومعنى مرباد: يعلوه السواد، ومجخيا أي مقلوبا.

(٣) تهذيب مدارج السالكين ص٢٣٥.

فالمعركة بين المرء ونفسه معركة شديدة، ولا يبالغ من يقول إنها أعنف معركة في الوجود، فالعدو محبوب وما يدعو إليه محبوب، وما تعود منا إلا الاستسلام له، والأسلحة التي يحاربنا بها لا نعرف كثيرا منها. هدف هذا العدو الاستئثار بكل شيء فما من حركة أو سكنة أو قول أو فعل إلا ويريدها له.

ومن وراء هذا العدو عدو أكبر أخرج أبوينا من الجنة بوسوسته وتزيينه. فالمعركة شديدة ولكن لا سبيل إلا خوضها والانتصار لله فيها.

حقيقة بيع النفس:

فمن أراد الجنة فليبع نفسه لله، وهذا البيع لن يتم إلا إذا انتصر على نفسه وساقها إلى الله. فترى حركاته وسكناته وقيامه وقعوده لله لا لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[1].

فصهيب الرومي - رضي الله عنه عندما ترك ماله وداره للمشركين في مكة في مقابل السماح له بالهجرة ما تركهما إلا لأنه باع نفسه لله

(١) سورة البقرة (٢٠٧).

ابتغاء مرضاته، وعندما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال: ربح صهيب. ربح صهيب.

فغاية جهاد النفس امتلاكها ثم بيعها إلىٰ الله والدليل علىٰ صدق هذا البيع المسارعة إلىٰ التضحية بها في سبيل مرضاته كما قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[١].

وخلاصة القول انه لا صلاح للأمة إلا بصلاح الفرد، ولا صلاح للفرد إلا بإصلاح النفس. فهذا هو شرط النصر.

يقول الله عز وجل **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**[٢].

ويقول ﷺ: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى علىٰ الله الأماني»**[٣].

---

(١) سورة التوبة (١١١). (٢) سورة الشمس (٧ – ١٠).

(٣) رواه الترمذي عن شداد بن أوس وقال: حديث حسن ومعنى دان نفسه: اي حاسبها، والكيس: العاقل.

الفصل الثاني

مع صفات جيل النصر

الفصل الثاني
مع صفات جيل النصر

ذكرنا ـ بفضل الله وتوفيقه ـ في الفصل الأول أن الشرط الذي اشترطه الله لنصرة عباده علىٰ عدوهم هو نصرتهم له علىٰ نفوسهم.

ولنُصرة جيل النصر ربهم علىٰ نفوسهم انعاكسات علىٰ سلوكهم وافعالهم. ولقد بين القرآن، وبينت السنة هذه الانعكاسات، وترجمها إلىٰ الواقع العملي صحابة رسول الله ﷺ وسلفه الصالح. وسنذكر بمشيئة الله وتوفيقه بعضا من هذه الصفات كمقياس يقيس كل منا به نفسه عليه: ويزن من خلاله أفعاله فيعرف أين هو من هؤلاء.

فصفات المؤمن الذي انتصر علىٰ نفسه كثيرة نذكر منها.

١ - متجرد:

وللتجرد صور.

ـ تجريد القصد:

عبد الله ومحل نصره جرد نيته لله، فلا يُقدم علىٰ أمر ما إلا بعد ان يتأكد من إخلاص نيته لله فيه كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

فهو لا يقدم علىٰ العمل طلبا للرفعة عند الناس، أو خجلا منهم، او حمية او عادة، ولقد سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[٢].

ـ تجريد التوحيد:

والمؤمن يجرد اعتقاده وتوحيده من الشركيات، فلا يذبح لغير الله، ولا يحلف إلا بالله، ولا ينذر إلا له، ولا يذهب لساحر او كاهن، ولا يتطير، ولا يتبرك بالأشجار والأحجار، ولا يزور الأضرحة، ولا يستعين بأصحابها علىٰ قضاء حوائجه[٣].

والمؤمن كذلك يجرد قلبه من التعلق بغير الله، فلا يرجو إلا الله ولا يخشى سواه ولا يتوكل إلا عليه، ولا ينيب إلا له، ولا يحب إلا من يحب، ولا يبغض إلا من يبغض.

---

(١) سورة الأنعام (١٦٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) حقيقة التوحيد. د. يوسف القرضاوي.

يرضى بقضائه ويتحاكم إليه ويتخاصم من أجله ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه.

- تجريد المتابعة:

فالمؤمن كما أنه متجرد القصد فهو متجرد الفعل أيضا فلا يقوم بأداء عمل ما إلا إذا كان موافقا للشرع متبعا لهدي الرسول ﷺ. قال تعالىٰ **﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾**(١).

فالخير كل الخير في اتباع الرسول ﷺ. فما ترك لنا من أمر يقربنا إلىٰ الله إلا ودلنا عليه، وما ترك لنا من أمر يبعدنا عن الله إلا ونهانا عنه.

وخلاصة القول أن المؤمن وقاف. يسأل نفسه قبل العمل: لمن هذا العمل؟ فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغير الله تركه.

وعند الشروع في العمل يسأل عن حكم الشرع فيه وكيف كان الرسول ﷺ يفعله فهذان هما ركنا العمل الصالح المقبول عند الله **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ**

---

(١) سورة الأنعام (١٥٣).

رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١).

٢ - يعظم شعائر الله:

المؤمن يعظم شعائر الله **﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾**(٢) لذلك تراه يحرص علىٰ أداء الفرائض بالكيفية التي أمره الله بها ثم يتبعها بالنوافل فهو يعلم أن طريق القرب من الله يبدأ بأداء الفرائض بإتقان. أما النوافل فالحرص عليها بعد أداء الفرائض ينقل صاحبها إلىٰ درجة حب الله له كما في الحديث القدسي **«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»**(٣).

ففي صلاته يحرص المؤمن علىٰ الجماعة الأولى في المسجد. بل إنه يبادر بالذهاب إلىٰ المسجد قبل الأذان ليفرغ قلبه من خواطر الدنيا

---

(١) سورة الكهف (١١٠).

(٢) سورة الحج (٣٢).

(٣) رواه البخاري.

حتى إذا ما حان وقت الصلاة أقبل عليها بقلب خاشع وبتركيز شديد، فصلاته بهذه الكيفية تنهاه عن الفحشاء والمنكر.

فإذا ما انتهى من صلاة الفرض اتبعها بأذكارها المأثورة وسننها الراتبة.

وهكذا في بقية الشعائر.

٣ - يتوكل علىٰ الله ويرضى بقضائه:

المؤمن يتوكل علىٰ الله في أموره كلها. قال تعالىٰ: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[١] والتوكل علىٰ الله لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب بل هو مكمل لها. فنحن مأمورون بالأخذ بالأسباب فيما نقدر عليه ونتوكل علىٰ الله فيما لا نقدر عليه، والمؤمن حين يأخذ بالأسباب فإن قلبه لا يركن إليها ولا يتعلق بها، لذلك فمن فوائد التوكل على الله: راحة القلب وهدوؤه. فالمتوكل يرى أنه قد أدى ما عليه واعتمد علىٰ الله فيما لا يقدر عليه..

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ

(١) سورة إبراهيم (١١).

حين قالوا ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾[١].

والمؤمن الذي يتوكل علىٰ الله ويفوض أمره إليه: يرضى بما قسمه الله له. ولم لا وهو يعلم أن علمه قاصر وعلم الله لا نهاية له. فالخير فيما اختاره الله ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[٢].

فالتوكل يكون قبل المقدور والرضا يكون بعده.

٤ - قصير الأمل:

فالمؤمن ينتظر الموت كل لحظة فهو في الدنيا كالغريب. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله بمنكبي فقال: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول من قبل نفسه: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك**[٣].

ولقد نظر المؤمن إلىٰ حياته نظرة موضوعية، وتتبع الطموحات

(١) سورة آل عمران (١٧٣).
(٢) سورة البقرة (٢١٦).
(٣) رواه البخاري.

والآمال فوجدها تنتهي بالموت.

ولكم ودع كل منا أناسا كانوا بين أظهرنا، وكانت لهم آمال وطموحات مستقبلية مثلنا. وفجأة جاءهم الموت وحال بينهم وبين أحلامهم. فكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كل يوم يقال مات فلان وفلان، ولابد من يوم يقال فيه: مات عمر».

٥ - غنيُّ النفس قنوع:

كما قال ﷺ: «ليس الغني عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»[١].

فالغنى الحقيقي هو غنى النفس بمعنى ان يستغني الإنسان عما في أيدي الناس فلا يطمع في شيء من مال أو منصب أو شهرة أو امرأة عند أحد منهم، فيفتقر قلبه إليه ويتعلق به وينعكس ذلك على تصرفاته معه: فيتذلل له، ويداهنه، ويكثر من مدحه ولا يحاول نصحه مخافة غضبه.

فكم من أناس ظاهرهم الغنى وباطنهم الفقر والطمع لما في أيدي غيرهم وهذا هو الفقر الحقيقي، وكم من أناس ظاهرهم الفقر وباطنهم

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة.

الغنى بالله والاستغناء عن الناس وهذا هو الغنى الحقيقي.

• ومن فوائد القناعة وغنى النفس على المؤمن: عدم النظر والتطلع لمن فضله الله عليه في نعم الدنيا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[١].

• ومنها: يقينه بأن رزقه سيأتيه ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٢] لذلك تراه هادئ البال، ساكن النفس، لا يتنافس أو يتخاصم مع أحد من أجل الدنيا. فالكل سيأتيه رزقه، ولم لا والله عز وجل يرزق أعداءه من عباد البقر والشمس والنار وغيرهم فكيف بمن يعبده؟!.

• ومن هذه الفوائد أيضا: الزهد في الدنيا. فالمؤمن يجرد قلبه عن حب الدنيا فلا يفرح بإقبالها عليه ولا يحزن على إدبارها عنه مصداقا لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٣].

(١) سورة طه (١٣١).
(٢) سورة هود (٦).
(٣) سورة الحديد (٢٣).

٦ – عفيف:

المؤمن عفيف لا يسأل الناس شيئا. حاله كحال من وصفهم الله عز وجل ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[1].

فتراه لا يستغل منصبه في قضاء حوائجه. يحسبه الناس من الأغنياء وقد لا يجد ما يطعمه. يموت وحاجته في صدره.

٧ – متواضع:

المؤمن أمات نفسه وأسقط حظوظها الدنيوية، فلا يرى لنفسه عزاً ولا قدراً بين الناس. لذلك تراه يكثر من الجلوس مع الضعفاء والمساكين، ويجيب دعوة الداعي مهما كان قدره.

ولقد كان الرسول ﷺ من أشد الخلق تواضعا مع سمو مرتبته. **قال ﷺ «ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»**[2].

(١) سورة البقرة (٢٧٣).
(٢) رواه مسلم.

ويروي أنس رضي الله عنه عن تواضع النبي ﷺ أن الأمة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، ويقضي لها حاجتها[1].

ويصف ابن القيم تواضع الرسول ﷺ فيقول: كان النبي ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث، وكان النبي ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن لينتقم لنفسه قط، وكان النبي ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلىٰ أيسر شيء[2].

ولقد سُئل الفضيل بن عياض عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

٨ – ذليل علىٰ المؤمنين رحيم بهم:

المؤمن ذليل علىٰ المؤمنين، خافض جناحه لهم كما قال الله عز وجل لنبيه ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

(١) رواه البخاري.
(٢) تهذيب مدارج السالكين (٤٢٨).
(٣) سورة الشعراء (٢١٥).

فذلة المؤمن علىٰ إخوانه تعكس مدى انتصاره علىٰ نفسه، فطبيعة النفس حب الانتصار ـ لا سيما مع الضعفاء ـ ولكن المؤمن وقف لنفسه بالمرصاد وخالف هواها فصار بذلك ذليلا علىٰ إخوانه، ذل رحمة وعطف وشفقة.

والمؤمن كذلك رحيم بالمؤمنين رفيق بهم. يضطرب قلبه إذا ما أصاب أحد منهم مكروه. يقول ﷺ: **«إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجْد أمه من بكائه»**(١).

٩ – عزيز علىٰ الكافرين:

المؤمن عزيز علىٰ الكافرين، شديد عليهم. قال تعالىٰ عن المؤمنين **﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾**(٢).

ولقد خالف المؤمن هوى نفسه ولم يبال بما يحدث له.

ورفع رأسه في عزة وإباء أمام الطواغيت وواجههم دون خوف أو وجل، فمصدر عزته ينبع من اتصاله بالله فهو بذلك الأعلىٰ سندا، ومن تمسكه بالقرآن وهو الأعلىٰ مصدرا مصداقا لقوله تعالىٰ: **﴿وَلَا**

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الفتح (٢٩).

تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

١٠ – حَسَن الخلق:

فحُسن الخلق من كمال الإيمان. قال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»**(٢).

فتراه: طليق الوجه، تعلو الابتسامة وجهه مهما كانت أحواله. متمثلا قول النبي ﷺ: **«لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»**(٣).

– إلفٌ مألوف، يسعى الناس إلىٰ مجالسته ومصاحبته. فحديثه محبب إلىٰ النفوس. هين، لين، ليس بفظ ولا غليظ.

– خفيف الظل مع الناس، يخالطهم ويمازحهم عندما يحسن المزاح وتلطف المداعبة، وهو في مزاحه لا يغلو ولا يشتط ولا يؤذى ولا يقول إلا حقا كما كان حال الرسول ﷺ.

– سمح، كما قال ﷺ **«رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا**

(١) سورة آل عمران (١٣٩).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه مسلم.

اشترى وإذا اقتضى»[١] .

– ذو مروءة؛ يترفع عن الدنايا والنقائص من الأقوال والأعمال .

– ينتقي ألفاظه كما تنتقى أطايب الثمر، فلا يجرح أحداً من المسلمين بكلمة فيها غلظة تؤذي سامعها. فحاله كما قال ﷺ : **«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»**[٢] .

– يدل على الخير ويحرص على نفع الناس، فقد قال ﷺ : **«كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الإثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»**[٣] .

١١ – يؤاخي في الله :

المؤمن يؤاخي في الله، ولا يحب شخصا إلا لما فيه من صفات يحبها الله. ولقد جرد أخوته ومحبته لإخوانه من المنافع الدنيوية والشخصية فصار أهلا لحب الله له كما جاء في الحديث: **«أن رجلا**

(١) رواه البخاري عن جابر.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٣) متفق عليه.

زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها عليه، قال: لا غير أني أحببته في الله تعالى. قال الملك: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[١] .

والمؤمن وفي لإخوانه، لا يتغير إذا ما تغير الزمان عليهم، ولا يتركهم إذا ما انفض الناس عنهم. ولقد أكرم الرسول ﷺ عجوزا دخلت عليه، فقيل له في ذلك فقال: **«إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»**[٢] .

والمؤمن مع حبه لإخوانه ووفائه لهم فإنه كذلك يؤثرهم على نفسه .

مصداقا لقوله تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[٣] .

ولقد عرض الماء على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك. فكان كل

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٣) سورة الحشر (٩).

منهم يأمر بدفعه إلىٰ صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلىٰ الماء حتى ماتوا جميعا ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم[١].

١٢ - يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل من قطعه :

فعن عقبة بن عامر قال: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: **«يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك.»** وفي رواية **«واعف عمن ظلمك»**[٢].

فهذه الأمور تحتاج من صاحبها إلىٰ درجة كبيرة من ضبط النفس، فعادة النفوس كراهية كل من يجرحها أو يظلمها أو يحرمها، بل وتنتظر لحظات الانتصار والتشفي ولكن المؤمن علم أن ربه يحب العفو والصفح والتسامح فأرغم نفسه علىٰ ذلك قربة لمولاه.

١٣ - يكظم الغيظ :

قال تعالىٰ ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣].

فالكل يعلم أن لحظات الغيظ والغضب والانفعال من أصعب

---

(١) مختصر ابن كثير (٣ / ٤٧٤).

(٢) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات.

(٣) سورة آل عمران (١٣٤).

أوقات الإنسان لأنه يجد فيها صعوبة شديدة ليتحكم في تصرفاته وانفعالاته، لذلك كان كظم الغيظ من أسمى صفات المؤمن لأنه يعكس مدى انتصاره علىٰ نفسه فكما يقول ﷺ : **«ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**[١].

والمؤمن كذلك لا ينتقم لنفسه، ولا ينتصر لها. تقول السيدة عائشة: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالىٰ: فينتقم لله تعالىٰ[٢].

١٤ - صبور :

عبد الله ومحل نصره صابر في كل أحواله، فهو يعلم أن الصبر نصف الإيمان، وبالصبر يصل المرء إلىٰ مراده، وللصبر صور كثيرة:

- منها الصبر في السراء والضراء كما قال ﷺ : **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»**[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

- ومنها: الصبر على أداء الطاعة ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[1].

- ومنها: الصبر عن المعصية.

- ومنها الصبر على الفقر وضيق العيش ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[2].

ومنها الصبر على طول الطريق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين مصداقا لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3].

- ومخالطة الناس تحتاج إلى صبر ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[4].

- ودخول الجنة يحتاج إلى صبر ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[5].

---

(١) سورة مريم (٦٥).

(٢) سورة البقرة (١٥٥).

(٣) سورة السجدة (٢٤).

(٤) سورة الفرقان (٢٠).

(٥) سورة آل عمران (١٤٢).

فما نال عبد من عباد الله خيراً إلا وكان الصبر سببا فيه. فالصبر هو نتاج معركة الجهاد مع النفس. فمن انتصر على نفسه استطاع أن يُصَبِّرها على طاعة الله وتحمل الأذى ومن انتصرت عليه نفسه فما أبعده عن الصبر. فتراه جزعا، شاكيا، متسخطاً لا يصبر على شيء. لذلك كان أجر الصابرين بغير حساب جزاء لما بذلوا من جهد في معركتهم مع نفوسهم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

١٥ - حليم ذو أناة:

عبد الله ومحل نصره حليم ذو اناة لا يستفزه الغضب إذا واجه ما يغضبه، ولا يتسرع بالعقوبة، بل يضبط نفسه، ويتريث، فلا اندفاع، ولا تهور كلما ثارت في النفس ثائرة.

وهو واسع الصدر، لا ترى في تصرفاته العجلة الرعناء في تصريف الامور وفي القيام بالاعمال، وفي الحكم على الأشياء واستعجالها قبل أوانها[2].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس:

---

(١) سورة الزمر (١٠).

(٢) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (٢/ ٣٣٧، ٣٣٨).

«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[1].

١٦ - يجهر بالحق ويرتبط به:

المؤمن يجهر بالحق ولا يخشى في الله لومة لائم مع علمه التام بما قد يصيبه من جراء ذلك. فقد خالف هوى نفسه وأرغمها علىٰ قول الحق دون النظر إلىٰ العواقب متمثلا قول رسول الله ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلىٰ سلطان جائر فنهاه فقتله**»[2] فالحق علىٰ لسانه دائما فلا محاباة ولا مداهنة ولا مجاملة. يقول الحق ولو علىٰ نفسه أو أقربائه. قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾[3].

لذلك تراه إذا ما وقع في الخطأ لا يكابر أو يحاول تبرير خطئه، بل يعترف به، ولا تأخذه العزة بالإثم إذا ما نُصح، بل يذعن للحق أياً كان مصدره.

● والمؤمن قد يختلف مع من حوله من أجل الحق لا من أجل نفسه والدليل علىٰ ذلك عدم محاولته فرض رأيه أو الانتصار له دون النظر لموقع هذا الرأي من الحق. بل إنه يُذعن لمجادله إذا ما

---

(١) رواه مسلم. (٢) رواه الحاكم من حديث جابر وقال عنه صحيح.

(٣) سورة النساء (١٣٥).

ظهر الحق علىٰ لسانه.

● والمؤمن كذلك يرتبط بالحق فلا يتعصب لشخص أو مذهب فهو مع الحق أينما كان. فهو الميزان الذي يزن الجميع به، وكما قالوا: اعرف الحق تعرف أهله، لذلك تراه دائما مرتبطا بالمبادئ مبتعدا عن الارتباط بالأشخاص.

١٧ - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:

مصداقا لقوله تعالىٰ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[1].. الآية.

فالمؤمن يعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علىٰ كل مسلم - كلٌ بحسب استطاعته - ويعلم كذلك أن من يترك هذا الواجب يتعرض لعقاب شديد من الله عز وجل، ففي الحديث «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»[2].

---

(١) سورة آل عمران (١١٠).

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

والمؤمن حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنه لا ينسى فقه هذا الأمر، فلا ينهى عن منكر يؤدي تركه إلىٰ الوقوع في منكر أشد، ولا يأمر بمعروف يؤدي فعله إلىٰ ترك معروف أهم.

- ومن أهم صور الأمر بالمعروف: الدعوة إلىٰ الله: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾(١)..الآية.

فالمؤمن يستشعر مسؤليته تجاه دينه ويعلم أن الإسلام الآن يحارب حربا شرسة، والمسلمون يذبحون ليلا ونهارا ودماؤهم تسيل أنهارا، ولا يوجد للإسلام دولة تدافع عنه وترفع رايته. ولقد أيقن أن الطريق إلىٰ تمكين دين الله في الأرض يحتاج إلىٰ دعوة الناس إلىٰ الله وانتشالهم من بحر الدنيا. ولقد بشّر الرسول الدعاة إلىٰ الله بالأجر العظيم ففي الحديث: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النَّعم**»(٢).

- ومن صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك العمل علىٰ إقامة الإسلام كاملا في البيت، فالمؤمن يعلم أنه مسئول عن زوجته وأولاده. قال تعالىٰ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**

(١) سورة يوسف: (١٠٨).

(٢) متفق عليه.

وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(١).. الآية، فتراه يعمل علىٰ تطبيق الإسلام بكل جوانبه علىٰ نفسه وعلىٰ أهله، فبيته بيت قرآني لا تسمع فيه إلا ما يرضي الله، ولا يقع بصرك علىٰ شيء حرمه الله، تسمع فيه دويا كدوي النحل من أثر تلاوة القرآن، ينام أهله بعد العشاء ويستيقظون في الثلث الأخير من الليل يتهجدون لله ويستغفرونه بالأسحار ويتسابقون في فعل الخيرات.

١٨ - يحاسب نفسه ويسيء الظن بها:

فلقد علم المؤمن أن نفسه هي أعدى أعدائه فوقف لها بالمرصاد، وحاسبها علىٰ الصغيرة والكبيرة. قال تعالىٰ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾(٢).. الآية

ويقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم وتهيئوا للعرض الأكبر ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾(٣).

ويقول عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب -

(١) سورة التحريم (٦).

(٢) سورة الحشر (١٨).

(٣) سورة الحاقة (١٨).

رضي الله عنه ـ علىٰ عاتقه قربة ماء فقلت: «يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أكسرها»[١].

والمؤمن مع محاسبته لنفسه فإنه يسيء الظن بها. فهو يرى أنه أقل الناس شأنا، ينظر إلىٰ نفسه بعين الخوف وإلىٰ غيره بعين الرجاء. فإذا ما رأى من هو أكبر منه يقول: سبقني بالعمل الصالح، وإذا رأى من هو أصغر منه يقول: سبقته بالذنوب. بل إنه بعدما يقوم بأداء العمل ويتحرى الإخلاص فيه يتشكك في قبوله لسوء ظنه بنفسه كما قال تعالىٰ **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾**[٢] قال الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا ابنة الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل**»[٣].

ويقول مالك بن دينار: والله لو وقف ملك بباب المسجد وقال:

(١) تهذيب مدارج السالكين (٤٢٩).

(٢) سورة المؤمنون (٦٠).

(٣) رواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه.

يخرج شر من في المسجد لبادرتكم إليه[١].

وكان ابن تيمية إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلىٰ الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً[٢].

١٩ - استواء المدح والذم عنده:

المؤمن علم أن المدح هو الشراب الذي تهواه النفس لتنال به حظوظها فتشمخ وتنتفخ، وسمع تحذير رسول الله ﷺ من خطورته عندما قال لرجل مدح أخاه في وجهه «**ويحك قطعت عنق صاحبك**»[٣] فعمل علىٰ عدم وصول هذا الشراب لنفسه بكل الطرق، فإذا ما وصل كان لنفسه بالمرصاد حتى استوى عنده المدح والذم. فلم يجزع ويحمل في صدره ممن يذمه وينتقده، ولم يفرح بمن يمدحه.

٢٠ - يحفظ الحرمات:

- فلا يغتاب أحداً من المسلمين، ولا ينقل الكلام بينهم، ولا يتحسس أو يتجسس عليهم، ولا يسيء الظن بهم.

(١) صفة الصفوة (٣/٣٧٥).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٢٧٧).

(٣) متفق عليه.

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

- والمؤمن كذلك يستر المسلمين ويحفظ سرهم كما قال ﷺ **«لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»**(٢).

- ويعلم أن الكلمة أمانة فلا ينقل كل ما سمعه، بل يتثبت مما يقول كما قال ﷺ **«كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع»**(٣).

- ولقد فطم المؤمن نفسه عن الفضول؛ فلا يتدخل فيما لا يعنيه. ففي الحديث: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**(٤).

٢١ - لا يسخر من مسلم أو يحتقره:

المؤمن لا يحتقر أي مسلم مهما ولغ في المعاصي، فهو يعلم أن الخاتمة مجهولة للجميع، ولعل الله قد اطلع إلىٰ قلبه فوجد فيه كبرا وغرورا فأحبط عمله، واطلع إلىٰ قلوب العصاة فرأى فيها ذلا وانكسارا وخوفا فغفر لهم، ويسر لهم طريق العودة إليه.

(١) سورة الحجرات (١٢).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

يقول ابن القيم: فذنب تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليها. وإنك إن تبت نائما وتصبح نادما خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مُدِل. وأنين المذنبين أحب إلىٰ الله من زجل المسبحين المدلين ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر(١).

وحسبنا ما قاله الرسول ﷺ **«بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»**(٢).

- والمؤمن كذلك لا يشمت في أحد من المسلمين وإن كان قد آذاه في يوم من الأيام قال ﷺ: **«لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك»**(٣).

يقول ابن القيم: أنه جاء يوما إلىٰ شيخه الإمام ابن تيمية مبشرا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له فنهرني وتنكر لي واسترجع ثم قام من فوره إلىٰ بيت أهله فعزاهم وقال: إني لكم مكانه

(١) تهذيب مدارج السالكين (١٢٠).
(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

ولا يكون لكم أمرا تحتاجون فيه إلىٰ مساعدة إلا ساعدتكم فيه. فسروا به ودعوا له وعظموا هذا الحال منه فرحمه الله ورضي عنه[1].

- والمؤمن بعيد كل البعد عن ظلم المسلمين فإن أخطأ أو تجاوز في حق أحد سارع بالاعتذار إليه وتحلله منه ففي الحديث «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم. إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه**»[2].

- والمؤمن كذلك لا يسخر من أحد من المسلمين أو يلمزه ولا يناديه إلا بأحب الألقاب إليه عملا بقوله تعالىٰ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[3].

(١) تهذيب مدارج السالكين (٤٣٧).
(٢) رواه البخاري.
(٣) سورة الحجرات (١١).

٢٢ - صادق:

المؤمن صادق لا يكذب أبدا مهما كلفه ذلك من مغارم، فهو يعلم أن الكذب وإن كان قد ينجيه في الحال لكنه سيهلكه في المآل، وأن الصدق وإن كان سيضره في الحال لكنه سينجيه في المآل. فما نجى الثلاثة الذين خُلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إلا بالصدق. لذلك كانت وصية الله لنا بعد نهاية قصتهم في سورة التوبة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[1] وصدق المؤمن يبدأ بصدقه مع نفسه ثم ينعكس بعد ذلك علىٰ الناس، فتراه صادقا في حديثه، صادقا في تعاملاته، لا يغش ولا يغدر ولا يخون ولا يشهد زورا.

يؤدي الأمانة ويفي بالوعد فصدقه يبعده عن النفاق. قال ﷺ «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**»[2].

٢٣ - جاد ذو همة عالية:

المؤمن جاد في حياته كلها، يأخذ أموره بقوة، فلا هزل وقت

(١) سورة التوبة (١١٩).
(٢) متفق عليه.

الجد، ولا تهاون أو تراخي وقت العمل عملاً بقوله تعالىٰ **﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾**(١)... الآية.

- والمؤمن كذلك قوي، قوي الجسد يحرص علىٰ ما ينفع جسده ويبتعد عما يضره.

- قوي الإرادة فإرادته تفل الحديد ففي الحديث:

«المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص علىٰ ما ينفعك. واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»(٢).

- والمؤمن حازم في أموره كلها. فلا تراه مهزوزا أو مترددا، فقبل الإقدام علىٰ العمل يستشير من حوله ويستخير ربه، فإذا ما اتخذ القرار مضى في تنفيذه دونما تردد **﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾**(٣).

- وهو إيجابي، نشيط، يهتم بأمر المسلمين، يخالط الناس في

(١) سورة البقرة (٦٣).
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة آل عمران (١٥٩).

الخير ويصبر علىٰ أذاهم، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويعيش معهم في مشاكلهم ويعمل علىٰ حلها كما قال ﷺ: **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم»**(١).

- ومن سمات المؤمن: علو همته، فقلب المؤمن معلق بالجنة ونعيمها حيث التمتع برؤية مولاه وحبيبه، ومرافقه نبيه. فعن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: **«كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل».**

فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال «أو غير ذلك»؟ قلت: هو ذلك، قال «فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»(٢).

فالارتقاء في مراتب الكمال لا يأتي بمجرد الأماني، وإنما يأتي بالجهاد والاجتهاد والعمل الدائب قال تعالىٰ: **﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ**

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.
(٢) رواه مسلم.

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾(١).

ومع علو همته، فهو أيضا مثابر لا يعرف اليأس طريقا إليه، فتراه بعد أن يحدد هدفه يسعى بكل ما أوتي من قوة لتحقيقه، ولا يدع اليأس يتسرب إلىٰ قلبه إذا ما فشلت محاولاته الأولى بل يحاول ويحاول مرات ومرات دونما كلل أو ملل، فهو يعلم أن النجاح ليس بثمرة قريبة المنال بل يحتاج إلىٰ جهد وعرق وصبر ومثابرة، وصدق الشاعر حينما قال:

*لا تحسب المجد تمراً أنت آكله * لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا*

ولقد علم المؤمن أن علو الهمة والمثابرة في تحصيل المقصود يحتاج إلىٰ الاستثمار الجيد للوقت وعدم إضاعته فيما لا يفيد، فلا تراه يلغو، ولا تراه يجلس مجلساً فارغا بل هو دائما في شغل إما من أجل دينه أو من أجل دنياه كما قال تعالىٰ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾(٢) فالوقت هو الحياة، وهو رأسمال الإنسان الحقيقي، ومن تأمل في الواجبات المطلوبة منه تأكد أنها أكثر من الأوقات. يقول ابن مسعود: ما ندمت علىٰ شيء ندمي علىٰ يوم غربت شمسه

(١) سورة النساء (١٢٣، ١٢٤).
(٢) سورة الشرح (٧).

نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

٢٤ - كريم جواد:

المؤمن كريم جواد، يبذل بسخاوة نفس ويجود بما عنده محتسبا ذلك عند الله عز وجل. قال تعالىٰ ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(١).

ولا يكون إنفاق المؤمن في حال سرائه فقط بل وفي وقت حاجته الشديدة كما قال تعالىٰ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾(٢).

وهو حين ينفق من ماله أو وقته فإنه لا يبتغي من وراء ذلك جزاءً مأديا أو معنويا، ولا يريد شكراً أو تعظيما، فقد ابتغى الأجر من الله ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾(٣) فهو أبعد ما يكون عن المن بعطاياه.

- والمؤمن كذلك يكافيء علىٰ المعروف فلا يجحده، ويشكر عليه ولا ينساه فهو بعيد عن الخسة، يكرم من أكرمه، ويشكر من

(١) سورة البقرة (٢٧٢).
(٢) سورة آل عمران (١٣٤).
(٣) سورة الإنسان (٢٨).

صنع إليه معروفا كما قال ﷺ «**من استعاذ بالله فأعيذوه ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه**»[١].

٢٥ – معتدل ومتوازن :

المؤمن متوازن في حياته كلها، يحيط الإسلام من جميع جوانبه فلا يجعل جانبا يطغي علىٰ آخر، بل يعطي كل ذي حق حقه. قال ﷺ : «**... فإن لجسدك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا**»[٢].

وهو يضع الشيء في مكانه الصحيح **﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**[٣] فلا يضخم صغيرا ولا يصغّر كبيرا، يقدم الأهم على المهم ولا يرتكب الحرام من أجل اجتناب المكروه، ولا يتمسك بنافلة ويترك فريضة. فهو معتدل في عباداته لا يكلف نفسه ما لا تطيق فالطريق طويل، ففي الحديث «**إن هذا الدين يسر، ولن يُشَادّ الدين أحدٌ إلا غلبه..**»[٤].

(١) رواه أبو داود والنسائي وأحمد وإسناده صحيح.
(٢) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو.
(٣) سورة البقرة (٢٦٩).
(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

ومعتدل كذلك في طعامه وشرابه **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾**[١]. ومعتدل في إنفاقه **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾**[٢] ومعتدل في هيئته، يأخذ زينته بلا إسراف، ومعتدل في تعاملاته مع الناس، فيخالطهم في الخير ويعتزلهم في الشر ولا يجاريهم في لهوهم ومعاصيهم. ومعتدل في تقييمه للأمور، فلا يحكم علىٰ الشيء بعاطفته بل يزن الأمور بميزان العقل ويتأنى كثيرا في الحكم علىٰ غيره، فلا يرمي أحدا بفسوق أو عصيان بدون دليل ولا برهان.

فهو من الأمة الوسط التي قال الله عز وجل عنها **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**[٣].

٢٦ – ورع :

المؤمن ورع يتحرى الحلال في كل أحواله.. يترك بعض المباحات مخافة الوقوع في الحرام. قال تعالىٰ: **﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ**

(١) سورة الأعراف (٣١).
(٢) سورة الفرقان (٦٧).
(٣) سورة البقرة (١٤٣).

تَقْرَبُوهَا ﴾[1] فكل ما هو محرم حوله دائرة من الشبهات ينبغي للعبد المؤمن ألا يقربها كما قال ﷺ: **«إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»**[2] .. الحديث.

فهو يتحرى الحلال في طعامه وشرابه فلا يُدخل جوفه إلا ما كان حلالا صافيا، ويتحرى الحلال كذلك في سعيه في طلب الرزق وفي تعاملاته مع الآخرين وفي سائر أحواله.

والمؤمن كذلك يترك ما يريبه ويشك فيه كما قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: حفظت عن رسول الله ﷺ: **«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»**[3] ويقول سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه[4].

---

(١) سورة البقرة (١٨٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) [illegible] (٢٩٠).

٢٧ - يضحي في سبيل الله:

المؤمن يضحي في سبيل الله بكل ما يملك من مال ووقت وجهد بل ونفس كما كان حال أبيه إبراهيم - عليه السلام - عندما أمر بذبح ابنه فانصاع للأمر حبا في الله وطاعة لأوامره، وكما كان حال الرسول ﷺ وصحابته الكرام عندما تركوا ديارهم وأوطانهم وأموالهم وأهليهم وهاجروا إلى المدينة فارين بدينهم ابتغاء مرضات الله. فهذا صهيب الرومي يقول: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمت إلينا ولا مال عندك وتخرج أنت ومالك. والله لا يكون ذلك أبدا. فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «ربح صهيب ربح صهيب» مرتين وفيه نزلت الآية ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾[1] .. الآية.

فالمؤمن قد عقد البيعة مع الله، وباع له نفسه وماله في سبيل رضاه وجنته، فلا تراه يبخل على الله بوقت أو جهد أو مال أو نفس مصداقا لقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ**

كذلك في سعيه في طلب الرزق وفي
أحواله.
ريبه ويشك فيه كما قال الحسن بن علي
لي قريش يا صهيب قدمت إلينا ولا مال عندك وتخرج أنت
ومالك. والله لا يكون ذلك أبدا. فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم
مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني
حلالا صافيا، ويتحرى الحلا
تعاملاته مع الآخرين وفي سا
والمؤمن كذلك يترك ما

لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[1] ... الآية.

والدليل العملي علىٰ صدق تضحيته لله: تقديمه دائما مصلحة الدين علىٰ مصالحه الدنيوية إذا ما حدث بينهما تعارض، فلا تراه منشغلا بقضاء مصالحه تاركا تنفيذ أوامر ربه بل علىٰ العكس من ذلك تماما. يقول تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ

النداء. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

٢٩ - ثابت علىٰ الحق:

المؤمن ثابت دوما علىٰ الحق، لا يحيد عنه، ولا يتنازل عن أي



فالناظر المتفحص لتاريخ أمتنا يجد أن هذا الدين لم يصل إلينا نقيا، صافيا، واضحا إلا بفضل الله أولا ثم بفضل أولئك الذين ثبتوا علىٰ طريقه علىٰ مر العصور، لم يرهبهم سوط الجلاد ولا جمر الأصفاد، ولم يغرهم بريق المال أو الجاه فرسولنا ﷺ ـ كما نعلم ـ تعرض لكل أساليب التهديد من أجل ترك دعوته فلما فشلوا في ذلك ضغطوا علىٰ عمه أبي طالب وهددوه، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال له:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»(١).

٣٠ - حريص علىٰ ألا يُعرف:

المؤمن يحرص كل الحرص على ألا يشعر أحدٌ بمكانه، فإذا ما جلس وسط الناس ظهر كأنه من عامتهم فلا يحاول إظهار مواهبه كيلا تسلط الأضواء عليه، فتكاليف ذلك كبيرة. فمن أسمى حظوظ النفس الإحساس بالرفعة والأفضلية، وأي رفعة أكبر من إشارة الناس إليه ومدحهم له؟! لذلك فهو يسعي دائما إلىٰ الظل.

ولقد دخل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المسجد فرأى معاذ

(١) سيرة ابن هشام.

ابن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله يقول: **«إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة»**(١).

والمؤمن كذلك يتفنن في الإسرار بطاعته لربه ـ بخلاف الفرائض ـ ويعمل قدر جهده علىٰ ألا يعرف الناس شيئا عنها. فهو يعلم أن العمل عندما يكون بعيدا عن أعين الناس ولا يراه إلا الله فإن مظنة الإخلاص فيه أكبر مما لو عرفه الناس. فمعرفة الناس بالعمل قد تتسبب في إحباطه بمدحهم صاحبه أو نظرتهم إليه نظرة احترام وتوقير أو وضعه في مكانة مرتفعة، وهذه الأمور وغيرها تجعل النفس تنتشي فتعمل بدورها علىٰ أن يكون عمل العبد دائما من أجل الناس ليزداد المدح والتوقير.

ولقد كان دأب الصالحين دائما علىٰ مر الأزمان الحرص الشديد علىٰ إخفاء الطاعات، فعن أبي موسىٰ الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، قال: فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي، وسقطت أظافري فكنا نلف علىٰ أرجلنا

(١) أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد.

الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كان نعصب علىٰ أرجلنا من الخرق.

قال أبو بريدة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك كأنه كره أن يكون شيئا من عمله أفشاه[1].

٣١ - يفر من الإمارة:

المؤمن يفر من الإمارة ويدفعها عن نفسه ويتهرب منها غاية الإمكان. فالإمارة مغارمها كثيرة وفتنتها عظيمة ولا يكاد ينجو من التأثر السلبي بها أحد. فالنفوس مولعة بحبها. والمؤمن قد علم ذلك من نفسه فوقف لها بالمرصاد وخالف هواه وزرع في قلبه بغض الإمارة. ولقد نهانا الرسول ﷺ عن الحرص عليها أو طلبها لأن من

المصيبة لعلمه بأنها قد تجره إلىٰ النار، وسيدفعه هذا الخوف من تبعاتها إلىٰ الاستعانة الدائمة بالله عليها، وسيفكر كثيرا في كل خطوة يخطوها، وسيستشير من حوله، ولن يستبد برأيه، وسيحاسب نفسه علىٰ كل صغيرة وكبيرة ومع كل هذا فهو في قرارة نفسه يتمنى أن يبتعد عنها بل ويكون يوم تنحيته من أجمل أيام عمره.

هذا بالنسبة للإمارة، أما بالنسبة للجندية فالمؤمن يطيع أميره طاعة تامة في المنشط والمكره طالما كانت في المعروف، ففي الحديث «**علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[1].

والمؤمن كذلك لا يبالي بمن يتولى شانه، فلا ينظر إلي سن أميره أو نسبه أو شكله أو عمله، ولا يعقد مقارنة بينه وبين هذا الأمير. فمن

فطاعته واجبة(١).

٣٢ - ليس بحاسد:

المؤمن قد جاهد نفسه وروضها علىٰ حب الخير لغيره كما يحبه لنفسه، فلا يحسد أحداً علىٰ خير آتاه من الله، ولا يجد في صدره شيئا تجاه الآخرين كما قال تعالىٰ **﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾**(٢)..الآية. فقد علم أن الحسد ليس من صفات المؤمنين فهو يأكل الحسنات. ففي الحديث: **«إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**(٣).

٣٣ - وليس بمغرور:

عبد الله ومحل نصره لا يغتر بشيء أنعم الله به عليه، فهو دائما معترف بفضل الله، ولا يتبادر إلىٰ ذهنه أن النعم تَرِدُ عليه بسبب مواهبه، فهو دائما مستشعرٌ ضعفه وفقره لربه، وأنه لو تخلى عنه طرفة عين لهلك، [illegible]

لذلك تراه لا يغتر بطاعاته، ولا منصبه، ولا مكانته، ولا نسبه، ولا علمه، ولا يطالب الناس باحترامه من أجل تلك الأمور، فهو يعلم بأن ميزان التفاضل الحقيقي بين الناس هو التقوى كما قال تعالىٰ **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**(١) وهو بما يعلمه من نفسه يوقن بأنه أبعد ما يكون علىٰ أن يوصف بالتقى، لذلك فهو لا يرى لنفسه قدرا بين الناس مهما بلغ ثراؤه، ومهما بلغت درجته العلمية أو مكانته الأدبية.

ولقد اعتبر من مصير المغرورين فلم يسلك مسلكهم كيلا يصيبه ما أصابهم، فإبليس اللعين اغتر بعبادته وظن أن له عند الله قدراً بتلك العبادة، فلما أمره الله بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ أبى **﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾**(٢). فكان جزاؤه الطرد من رحمة الله.

وقارون الذي آتاه الله أموالا تنوء بحملها الجبال، قيل له اتق الله

شيئا تجاه الآخرين كما قال تعالىٰ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾(٢)..الآية. فقد علم أن الحسد ليس من صفات المؤمنين فهو يأكل الحسنات. ففي الحديث: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(٣).

٣٣ - وليس بمغرور:

عبد الله ومحل نصره لا يغتر بشيء أنعم الله به عليه، فهو دائما

أبعد ما يكون علىٰ أن يوصف بالتقى، لذلك فهو لا يرى لنفسه قدرا بين الناس مهما بلغ ثراؤه، ومهما بلغت درجته العلمية أو مكانته الأدبية.

ولقد اعتبر من مصير المغرورين فلم يسلك مسلكهم كيلا يصيبه ما أصابهم، فإبليس اللعين اغتر بعبادته وظن أن له عند الله قدراً بتلك العبادة، فلما أمره الله بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ أبى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾[١] ... الآية.

٣٤ - وليس بمتكبر:

المؤمن ليس بمتكبر فحاله كما قال تعالىٰ ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا** ﴾[٢].. الآية. وهو أبعد ما يكون عن الكبر وعن صفات المتكبرين، ولم لا وهو يعلم بأن الكبر أكبر عائق يعوق العبد عن دخول الجنة، ولقد قضى الله عز وجل بأن يصرف آيات توفيقه وتأييده عن المتكبرين ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾[٣]... الآية ولقد حرّمت الجنة علىٰ المتكبرين. ففي الحديث «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٤].

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: «وإنما صار الكبر حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها،

(١) سورة القصص (٨١).

(٢) سورة الفرقان (٦٣).

(٣) سورة الأعراف (١٤٦).

(٤) رواه مسلم.

لأنه لا يقدر علىٰ أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر علىٰ التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر علىٰ ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم علىٰ الصدق وفيه العز، ولا يقدر علىٰ ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر علىٰ كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر علىٰ ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر علىٰ النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر علىٰ قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم وفيه العز.. فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه»[١].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «**كل بيمينك**» **قال: لا أستطيع! قال:** «**لا استطعت**» ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلىٰ فيه[٢].

فالمؤمن بعيد عن ذلك كله فلا ترى منه شيئا من صفات المتكبرين فلا تراه يمشي في الأرض مختالا فخورا، ولا يعرض بوجهه عن الناس، ولا يتنطع في كلامه.

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٢) رواه مسلم.

يقول د. عبد الرحمن حبنكة: ومن آثار الكبر في السلوك الظاهر: التبختر والخيلاء والمرح في المشية، وتصعير الخد، والإعراض عن حديث المتحدث، والنظر الشذر إلىٰ الناس وجر الثوب من الخيلاء، والتقعر في الكلام والتشدق فيه، والإجابة بحركات الوجه أو اليدين أو غيرهما من الجسم كرفع الحاجبين ومط الشفاه وإدارة الظهر والالتفات بالعنق وإشارة اليد.

ومن آثاره: الهزء والسخرية بالآخرين، واحتقار الناس وازدراؤهم، وحركات الغمز واللمز، والتعيير، والتنقيص.

وأيضا: الترفع عن مجالسة ضعفاء القوم وفقرائهم ومساكينهم، والترفع عن محادثتهم ومؤاكلتهم ومشاربتهم.

ومنها التعصب للرأي والعناد علىٰ الباطل رغم وضوح الحق.. وهكذا إلىٰ أمور كثيرة جدا[1].

٣٥ - يسارع في الخيرات:

المؤمن يبادر دوما إلىٰ عمل الصالحات ويغتنم فرصة فراغه قبل شغله، وشبابه قبل هرمه، وصحته قبل سقمه، فتراه يسارع في القيام

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/ ٧٣٢، ٧٣٣).

بأداء كل ما يبلغه من الفضائل ويحرص علىٰ ألا تفوته واحدة منها ليُكتَب من أهلها.

قال تعالىٰ ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»**[2].

ويقول الإمام النووي[3]:

اعلم أنه ينبغي لمن بلغه شيء في فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرة واحدة ليكون من أهله: ولا ينبغي أن يتركه مطلقا بل يأتي بما تيسر منه، لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحته **«إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»**.

لذلك فعبد الله ومحل نصره:

- بار بوالديه كما قال تعالىٰ ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**

(١) سورة البقرة: (١٤٨).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٣) الأذكار للنووي: (١٩).

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1].

وهو يعاشر أهله بالمعروف.

قال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم»**[2].

ـ يصل رحمه:

فعن أبي أيوب الأنصاري أن رجلا قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال النبي ﷺ: **«تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»**[3].

ـ يحسن إلىٰ جاره كما قال ﷺ: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثُه»**[4].

ـ يذكر الله في كل أحواله، قال تعالىٰ **﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾**[5].

---

(١) سورة الإسراء: (٢٣).

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) سورة الجمعة (١٠).

وعن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: **«لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»**[1].

فالمؤمن يذكر الله عند استيقاظه من نومه وعند دخوله للفراش، وعند خروجه من منزله، وعند دخوله له، وعند الذهاب إلىٰ المسجد، وعند الوضوء، وعند رؤية الهلال، وعند نزول المطر، وقبل شروق الشمس، وقبل غروبها، وعند قيام الليل وعند كل مناسبة أثر فيها الذكر.

ـ من أهل القرآن، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**[2].

ـ يفشي السلام، ويعود المريض، ويتبع الجنائز، ويشمت العاطس، وينصر الضعيف ويبر المقسم.

عن أبي عمارة البراء بن عازب قال: **«أمرنا رسول الله ﷺ بسبع بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر**

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري.

الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم»[1].

– يحرص علىٰ طلب العلم، فيواظب علىٰ حضور مجالسه ومطالعة كتبه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع»[2].

– يحترم الكبير ويعطف علىٰ الصغير ويوقر العلماء.

– يسبغ الوضوء علىٰ المكاره.

– ينتظر الصلاة في المسجد ويردد الأذان.

– يحافظ علىٰ صلاة الجماعة والصف الأول ويعمل علىٰ ألا تفوته تكبيرة الإحرام.

– يستاك قبل الصلاة وقبل النوم وقبل قراءة القرآن وقبل الوضوء وعند تغير رائحة فمه.

– يبكر في الذهاب لصلاة الجمعة.

– يصوم الاثنين والخميس وتاسوعاء وعاشوراء، والعشر الأوائل

(١) متفق عليه وهذا لفظ إحدى روايات البخاري.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

من ذي الحجة وبخاصة يوم عرفة، والأيام البيض من شوال.

– يعتكف في العشر الأخير من رمضان.

– يحافظ علىٰ مظاهر الإسلام في هيئته.

– يحافظ علىٰ سنن الفطرة.

– يتقن عمله وما تخصص فيه.

– يعتني بجسده ويبعد عنه ما يؤذيه.

– يزور المقابر للعظة والاعتبار.

– يختار ذات الدين عند زواجه.

– ينسب الخير لأهله.

– يقبل عذر المعتذر.

– ينام علىٰ طهارة.

– يستخير ربه في أموره كلها.

٣٦ – يجتنب النواهي:

عبد الله ومحل نصره يجتنب نواهي الله سواء كانت هذه النواهي من المحرمات أو من المكروهات. يقول أحد الصالحين: المكروه عقبة

بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المكروه تطرّق إلىٰ الحرام.

- لذلك فعبد الله لا يسرق ولا يزني ولا يأكل أموال الناس بالباطل.

- يغض البصر عن كل ما حرم الله.

- لا يغش ولا يغدر ولا يخون.

- لا يحلف بغير الله.

- ليس بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء.

- لا يستهزئ بمسلم أو يسخر منه.

- لا يتطير.

- ليس بأرعن ولا أحمق.

- لا يتكر لأحد بسوء.

- لا يكثر العتاب.

- لا يختال في مشيته ولا يجر ثيابه.

- لا يتقعر في كلامه.

- لا يكثر من الضحك.

- لا يجد حرجا في أن يقول لا أدري إذا ما سُئل عن أمر لا يعرفه.

- لا يتسخط أو يتشكي.

- لا يحمل شيئا في صدره تجاه إخوانه.

٣٧ - محتسب:

المؤمن يدخر أجر عمله عند الله. فهو يوقن بأن ما عند الله لن يضيع، شريطة أن يكون العمل خالصا لوجهه وابتغاء مرضاته؛ لذلك تراه محتسبا في جميع أحواله:

فهو محتسب في إنفاقه في سبيل الله ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ

وهو محتسب كذلك في عمله للإسلام **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾**(١).

ومحتسب أيضا في جهاده وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وفيما يلقاه من الأذى، وفي صبره وثباته على الحق **﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾**(٢).

وهو يعلم بأنه إذا ما ظلمه أحد أو بغى عليه أو اغتصب حقاً من حقوقه فإن الله لن يتركه وسيرى جزاء ذلك كله عنده يوم القيامة. فالعمر مهما طال فسينتهي بالموت، والدنيا مهما طال أمدها فإلى زوال، ونهايتنا جميعا عند الله **﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾**(٣) ففارق كبير بين من يأتي ربه يوم القيامة محتسبا، وبين من يأتيه مفلسا يكسوه الخزي والعار.

(١) سورة التوبة (١٢٠).
(٢) سورة آل عمران (١٧٣).
(٣) سورة النجم (٤٢).

٣٨ – يداوم على الاستغفار والتوبة:

المؤمن يلازمه الاستغفار، فهو يشعر دوما بالتقصير في جنب الله، ولم لا ورسوله الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: **«يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»**(١).

يقول ابن القيم: وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها. وقد أمر الله وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أجلّ المواقف وأفضلها **﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾**(٢).

وقال تعالى **﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾**(٣) قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا ثم قال: **«اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**.

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة البقرة (١٩٩).
(٣) سورة آل عمران (١٧).

ونقد أمر الله النبي ﷺ بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها فقال في آخر سورة أنزلت إليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

ومن ههنا فهم عمر، وابن عباس - رضي الله عنهم - أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه[2].

فالتوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغني عنها

فالأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن التوبة، ألا ترى إلىٰ ما روي عن النبي ﷺ «إنه ليغان علىٰ قلبي وإني لأستغفر الله عز وجل في اليوم والليلة سبعين مرة».

فلو استغنى أحد عن التوبة وأمن من العدو وشؤم النفس ووساوس الشيطان ومكايده، واغتر بشرف المكان وطهارته والقرب إلىٰ الله ودنو منزلته، فكان ذلك حقيقا بآدم عليه السلام فلم يستغن عن التوبة حتى تاب الله عليه لقوله عز وجل ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

الفصل الثالث

نظرة إلىٰ الواقع

الفصل الثالث

نظرة إلىٰ الواقع

فإن كان هذا هو شرط النصر الأساسي... وإن كانت هذه هي صفات جيل النصر... فأين نحن من ذلك؟!

قبل الإجابة عن هذا السؤال أُذكّر نفسي وإياكم بأن هذه الصفات الكثيرة التي ذكرناها لأهل النصر والتمكين ما هي إلا نتاج معركة ضخمة وجهاد مرير لهؤلاء مع نفوسهم، ولقد أثمر هذا الجهاد عن تزكية تلك النفوس وترويضها وامتلاك زمامها في أيديهم؛ ومن ثم قبولها فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه.

وفي المقابل إذا أردنا أن نعرف أين نحن من هؤلاء فلينظر كل منا إلىٰ أفعاله وليقارنها بأفعال جيل النصر والتمكين، فأفعال كل منا هي المرآة التي تعكس ما بداخله، وتعكس كذلك نتيجة المعركة الدائرة بين قلبه ونفسه.

فمن ترك نفسه ولم يجاهدها كانت الكلمة الأولى والأخيرة في حياته لها. فهي التي تسيره كيفما شاءت، ومن ثم فسيجد بونا شاسعا بينه وبين صفات جيل النصر.

ومن بذل جهداً محدودا مع نفسه فسيجد مسافة كبيرة تتناسب تناسبا عكسيا مع مقدار هذا الجهد.

أما من جاهد نفسه جهادا كبيرا وألزمها كلمة التقوى فسيشعر بقربه من جيل النصر والتمكين.

فصفات عباد الله والتي ذكرنا كثيرا منها في الصفحات السابقة هي الميزان الذي يستطيع من خلاله كل منا أن يعرف أين هو مما ينبغي أن يكون عليه.

ولقد نظرت إلىٰ حالي أولا وقارنت أفعالي بأفعال هؤلاء الذين يحبهم الله ويحبونه فوجدت مسافة كبيرة بيني وبينهم.

- فلقد وجدت من نفسي حب الراحة وكراهية المشقة، لذلك أشعر بها دائما وهي تختلق لي المعاذير للتأخر عن صلاة الجماعة حتى تفوتني تكبيرة الإحرام والصف الأول بل والجماعة الأولى أحيانا، وأجدها تسوق لي الكثير من المبررات لتدفعني لترك صيام التطوع إن عزمت عليه.

- ولمست منها كثرة الأماني والأحلام والتطلعات الدنيوية، وعدم رضاها بما قسمه الله لي فهي تريد دائما المزيد وتتطلع إلىٰ ما عند الآخرين.

– وأحسست بخوفها من الجهر بكلمة الحق، وشعرت بها وهي تدفعني للابتعاد عن نصح الكبير وذي المكانة.

– ولمست سرعة ضجرها ومللها وعدم قدرتها علىٰ تحمل المشاق.

– وشعرت بها وهي تحاول ان تغرس فيَّ حب الانتصار ممن ظلمني أو جرحني.

– ولمست منها حب الفضول والسؤال عن كثير مما لا يعنيها.

– ورأيت حبها وشغفها للجلوس في المجالس الفارغة حيث اللغو والضحك وإضاعة الوقت فيما لا يفيد.

– ورأيت كراهيتها واستثقالها لخدمة الآخرين وحبها وولوعها بخدمة الناس لها.

– ووجدت انتشاءها وانبساطها عندما يمدحني الآخرون سواء كان هذا المدح حقيقياً أو غير ذلك، وفي المقابل أحسست بانقباضها وضيقها الشديد عندما ينتقدني أحد من الناس.

– ورأيتها وهي في حالة شديدة من الغضب عندما تُجرح بكلمة وشعرت بتحفزها للانتصار علىٰ من جرحها.

– وشعرت بها وهي تحاول أن تمنعني من قول (لا اعلم) إذا ما سئلت عن أمر اجهله وبخاصة أمام من يظن بي أني صاحب علم.

– وإذا جادلت أحداً ألمس حبها للانتصار لرأيي وتمنيها خطأ من يجادلني.

– وإذا ما أخطأت وكان لابد من الاعتذار عن هذا الخطأ أجد منها مقاومة ملحوظة في الاعتراف بالخطأ.

– وإذا ما جلست مجلسا شعرت بها وهي تريد مني الاستئثار بالكلام وتدفعني لتطويع الحديث للكلام عن نفسي وإنجازاتها، وأشعر بها وهي تلح علي لكي اقاطع المتحدث وانفرد بالحديث.

– وكم من المرات أرى منها استشرافاً لكي يعرف الناس بخصوصية أفعالي التي وفقني الله إليها. وأجدها تحرص علىٰ أن تنسب الخير لها وتتناسى أنه من عند الله.

– وإذا ما جعلني الله سببا لورود الخير علىٰ أحد من الناس أرى منها إلحاحا عجيبا لدفعي للمن علىٰ هذا الشخص وتذكيره بهذا الخير كلما سنحت الفرصة، وأجدها في حالة شديدة من الضيق إذا ما قصر هذا الشخص في أي أمر تجاهي.

- وأراها تنتظر خطأ غيري لأصححه له فيظهر الفضل والتمييز.

- ولمست فيها الشح والحرص الشديد والخوف الدائم من الفقر وضيق العيش، وشعرت بها وهي تحاول دفعي للابتعاد عن الإنفاق في سبيل الله بدعوى خوف الفقر.

- وأراها لا تريد مني الاستماع إلىٰ صوت العقل عند تقييم الأمور، بل تريد الاندفاع والانسياق وراء العاطفة.

- وألمس فيها عجلتها وتسرعها في اتخاذ القرار وعدم نظرها إلىٰ العواقب ومآلات الأفعال.

هذا بعض ما أجده في نفسي، أما ما قد نجده بيننا من تصرفات وأفعال بعيدة كل البعد عن أفعال وصفات عباد الله ومحل نصره فكثيرة منها:

- أن البعض منا أصبح يتهاون في أداء عباداته بالصورة المثلى بل ويتلمس مواضع الرخص دائما مع أن هذا الدين لن يقام إلا علىٰ أكتاف أصحاب العزائم.

فقد يهمل البعض صلاة الجماعة ولا يبالي بفوات الجماعة الأولى، وبات الليل يشكو من قلة قائميه، وقل البكاء والاستغفار في الأسحار، وشكت المساجد إلىٰ الله قلة روادها في صلاة الفجر، وقل

حرص الكثير علىٰ الصف الأول في الجماعة بل وعلىٰ التبكير في صلاة الجمعة، وندر من نراه بيننا صائما في يومي الاثنين والخميس أو غيرهما من الأيام المأثور فيها الصيام.

- ومنها أن البعض لم يفهم قضية الاختلاف في الرأي فهما صحيحا. فأسباب الاختلاف كثيرة، ولقد اختلف الصحابة والسلف - رضوان الله عليهم - فيما بينهم ولم يمنعهم ذلك الاختلاف من أداء حقوق بعضهم لبعض، فقد كان من أهم ما يشغل بالهم الحرص التام علىٰ وحدة صفوف المسلمين المخلصين ونبذ كل ما يسيء إليها أو يضعف من عراها وكانوا يدركون أن الأخوة في الله ووحدة القلوب بين المسلمين تحتل المراتب الأولى للواجبات.

ولكن للأسف لم يفقه البعض منا فقه الاختلاف، فتراه يحاول أن يلزم غيره بما هو مقتنع به، ويظن أن الأفضل في حقه ينبغي أن يكون الأفضل في حق جميع الناس، ولقد تولد عن هذا الأمر عند البعض التعصب الشديد للرايات والأشخاص فكل من يسير تحت راية معينة يظن أنه علىٰ صواب وغيره دون ذلك.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد فالخلاف في الرأي مهما كان حجمه - إن كان بحثا عن الحق - فهو مفيد كما كان حال الصحابة

والسلف الصالح في خلافهم فيما بينهم من أجل الوصول إلىٰ الحق.

أما أن يتحول الخلاف إلىٰ سباب وتبادل اتهامات فهذا يدل دلالة قاطعة علىٰ أن هذا الخلاف ليس بحثا عن الحق بقدر ما هو للهوى وللانتصار للنفس، ولإشباع رغبتها في تشويه كل من يخالفها في الرأي حتى تنفرد بالتميز والعلو علىٰ غيرها.

ومما يدعو للأسف أن الشيطان قد استطاع ان يغرر بالبعض منا فزين له غيبة المخالفين في الرأي بدعوى أن مصلحة الدين تستلزم كشف هؤلاء فاصبحت أعراض الكثير مستباحة بالغيبة والسخرية والاستهزاء والغمز واللمز، ولو تجرد من يفعل ذلك من أسْر نفسه وهواها لتأكد انه يأكل لحم أخيه ميتا وهو لا يدري.

– ومما يلاحظ أيضا أن البعض منا قد حصر نفسه في نطاق عبادات معينة وترك أخرى مع أن ما تركه من عبادات قد يوازي أو يفوق في الأهمية ما يؤديه من عبادات.

– ومنها: أن البعض قد يأخذ بأفضل العزائم في أمور ويأخذ بكثير من الرخص بل ومما فيه شبهة في أمور أخري مما يضع علامة استفهام حول الباعث وراء ذلك والذي أظهره بهذه الصورة المتناقضة.

– ومن هذه الظواهر أيضا أن البعض منا أصبح يتجرأ علىٰ

الفتوى في دين الله دون استكمال الشروط المؤهلة لذلك.

– ومنها أن البعض يسارع بتفسيق وتكفير غيره دون دليل ولا برهان.

– ومما يلاحظ أيضا انغماس البعض منا في الدنيا ومباهجها وزخارفها والركون إليها مع أننا ندعي أننا أمة مجاهدة لا تعرف إلا الجهاد.

– ومنها أيضا: أن البعض منا يدعي أنه يحب إخوانه في الله لا لشيء غيره فإذا ما نظرنا إلىٰ تطبيقه العملي لهذا الحب نرى تباينا كبيرا بين ادعاءاته وبين أفعاله.

فمن علامات صدق الأخوة والحب في الله إعانة الأخ لأخيه علىٰ التقرب إلىٰ الله كما كان الصحابي يقول لأخيه: اجلس بنا نؤمن ساعة، ولكن البعض حصر لقاءاته بإخوانه في الترويح عن النفس، وإضاعة الوقت بالتسامر في أمور الدنيا.

– ومما يلاحظ أيضا عدم تثبت البعض عما يبلغهم من أخبار فينقلونها كما هي فتؤدي في بعض الأحيان إلىٰ إيغار الصدور بين المسلمين.

- ومنها أن البعض منا يقدم مصالح دنياه إذا ما تعارضت مع أوامر دينه بل إن البعض لا يُحَكِّم شرع الله في تعاملاته فكأنه يخلع رداء الالتزام بأحكام الإسلام عند خروجه من المسجد ويرتديه عند دخوله إليه مع أن الواجب يحتم عليه أن لا يقدم على خطوة قبل أن يعلم حكم الإسلام فيها.

- ومنها أيضا عدم وفاء البعض بالوعد، وعدم احترام المواعيد مع أننا جميعا نعلم أن عدم الوفاء بالوعد من خصال المنافقين وأن من وعد أخاه وعدا وأخلفه بلا عذر فقد أثم بذلك.

- ومما يلاحظ أيضا عدم حرص البعض على التناصح بضوابطه الشرعية، فقد ينصح الأخ أخاه أمام الملأ وبأسلوب فيه غلظة، وفي المقابل نرى البعض يترك نصح أخيه بدعوى الحياء مع أن الحياء لا يأتي إلا بخير وترك النصح بين المسلمين ليس بخير. فالدين النصيحة كما قال ﷺ.

- ومنها أن البعض منا لا يتحمل نقد أخيه إليه وقد تأخذه العزة بالإثم إذا ما عوتب على أمر من الأمور.

- ومنها أيضا إفراط البعض في مدح إخوانه في وجوههم مع أن ذلك مناف للشرع، وفيه الكثير من الأضرار التي تلحق بنفس

الممدوح.

- ومنها أن البعض لا يُحكِّم عقله فيما يحدث حوله بين إخوانه بل ينساق وراء عاطفته، وقد تجذبه هذه العاطفة إلى التحيز لطرف دون طرف مع أن الحق قد يكون مع الطرف الآخر.

- ومنها عدم حرص البعض على وقته، فتراه يعمل على إضاعته يَمْنة ويسرة، ولا يحزن إذا ما مر عليه يوم دون أن يزداد فيه علما نافعا أو عملا صالحا.

- ومن هذه الظواهر أيضا أن البعض منا تبدو صورته أمام الآخرين حسنة فإذا ما عومل بالدرهم والدينار ظهر بصورة مغايرة وتبينت معالم مكنوناته، وظهر تكالبه على الدنيا وحرصه على تحصيل أكبر قدر منها لنفسه دون النظر إلى الضوابط الشرعية التي تحكم هذه التعاملات.

- ومنها أن البعض كثير الشكوى يريد أن يأخذ ولا يريد أن يعطي، يفكر في حقوقه وينسى واجباته.

- ومنها أن البعض ينسى أن الكلمة أمانة وأن المجالس أمانات فتراه يفشي أسرار إخوانه، وينقل الكلام بين المجالس.

- ومنها أن البعض يجد متعة ولذة في معرفة عيوب إخوانه فتره

يتتبع عثراتهم ويتحسس أفعالهم ويسأل كثيراً عما لا يعنيه من أخبارهم.

– ومنها أن البعض قد أصبح عزيزا علىٰ إخوانه، لا يتغاضى عن هفواتهم ولا يقبل عذرهم ولا يصبر عليهم.

– ومنها أن البعض إذا أسدى لغيره معروفا نشر ذلك وأذاعه وسط من حوله وكأنه يريد الجزاء علىٰ هذا العمل بثناء الناس عليه وبارتفاع منزلته عندهم.

– ومنها سعي البعض إلىٰ المقدمة، فتجد الواحد منهم كثير الهم والغم إذا ما تخطاه الاختيار، فإذا ما نوقش في ذلك قال: إنما أريد أن أخدم الإسلام من خلال هذا المنصب فهو يرى في نفسه الكفاءة التي تؤهله لهذا المنصب، وكأن المرء لا يستطيع أن يخدم الإسلام إلا إذا كان في المقدمة، بل إن البعض إذا ما تولى شأنه من هو أصغر منه سنا أو أقل منه مكانة أو أحدث منه التزاما فإنه لا يؤدي ما عليه من واجبات أداءً كاملا تجاه هذا الشخص، فتراه دائما متبرما من توجيهاته ناقدا لتصرفاته.

وفي المقابل نرى البعض ممن ابتلاهم الله بالصدارة يكثرون من الكلام عن الجندية وعن حبهم لها وتمنيهم العودة إليها، فإذا ما قيل

لهم اتركوا أماكنكم بالمقدمة وكونوا بالخلف، هاجوا وماجوا وتذمروا، فإن قيل لهم: لماذا تلكم الثورة وأنتم تدعون أنه لا فرق بين جندي وقائد إلا بالتقوى والإخلاص؟ قالوا: إن مصلحة الدين تقتضي وجودنا بالأمام قادة وموجهين، بل إن البعض منهم قد يترك العمل نهائيا وينتقل إلىٰ صفوف القاعدين بسبب عدم رضاه بمكانه في المؤخرة.

– ومنها أن البعض لا يرى في الدنيا إلا نفسه، فهو الصالح لكل المهام، العارف ببواطن الأمور فتراه لا يمل من الحديث عن نفسه وعن إنجازاته، وإذا ما سُئل عن أي أمر من أمور الدين أو الدنيا سارع بالإجابة دون دراية تامة.

– ومنها أن البعض يعتد برأيه ويرى أنه الصواب ولا يحتمل الخطأ، فإذا ما وقع في الخطأ تراه يسوق المبررات والأعذار الواهية للهروب من الاعتراف به.

وبعد هذا العرض السريع لبعض ما ألحظه علىٰ نفسي وعلىٰ البعض ممن حولي أصبحت الرؤية أكثر وضوحا من ذي قبل. فهذه الأفعال التي تكلمت عن بعض منها تعكس أول ما تعكس انتصار نفوسنا علينا وأسرها لنا.

فلقد صار الكثير منا فيه من العبودية لنفسه أكثر مما فيه عبودية لربه.

لقد نسينا الله فأنسانا عداوتنا لأنفسنا، وصارت لنا حبيبة فسرنا وراءها، وأصبحنا لها خدماً، مهمتنا الأساسية العمل علىٰ توفير ما تحتاجه من شراب لخدمة حظوظها.

وأحسب أن من رحمة الله بنا عدم تمكينه لجيلنا حتى الآن، فكيف نسأل الله عز وجل التمكين والنصر ولم نحقق نحن في أنفسنا شروط هذا النصر؟!

إن وعد الله لا يتخلف، ولكن الناس هم الذين يسيئون الفهم، ويطالبون الله عز وجل بتحقيق وعدٍ لم يحققوا هم في أنفسهم شروطه ولا واجباته.

فسنة الله لن تتبدل حتى قيام الساعة ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾[1].

وسنة الله في النصر ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾[2].

---

(١) سورة فاطر (٤٣). (٢) سورة محمد (٧).

الفصل الرابع

إلىٰ العلاج...

الفصل الرابع
إلىٰ العلاج

وبعد ما تبين لنا شرط النصر الذي وضعه الله لعباده لينصرهم علىٰ عدوهم ويمكن لهم في الأرض، وتبين لنا كذلك أن هذا الشرط قد انتفىٰ لدينا بعد أن صار الكثير منا أسيرا لنفسه، يبقىٰ سؤال يفرض نفسه وهو:

هل من سبيل إلىٰ تصحيح هذا الوضع وتحقيق هذا الشرط أم أننا سنظل هكذا تابعين لأنفسنا، خاضعين لها، محققين لرغباتها وشهواتها؟! هل الداء قد استفحل والشر قد استحكم ولا سبيل إلىٰ العلاج؟!

نقول ولله الفضل والمنة: إنه ما من داء إلا وله دواء كما أخبرنا بذلك الرسول ﷺ.

ولكن ما هو الدواء المناسب لدائنا وكيف نحصل عليه؟

بحثت كثيراًعن ذلك حتىٰ وفقني الله ويسر لي من الأسباب ما جعلني أتعرف علىٰ بعض ملامح هذا الدواء من خلال تجارب السابقين من المربين.

خطوات العلاج:

إن أولىٰ خطوات هذا العلاج كما ذكر علماء التربية وأطباء القلوب: الإحساس بحجم المشكلة.

فلا بد أن يتعرف من يريد العلاج علىٰ حقيقة مرضه، ولن يتم له ذلك إلا إذا تعامل مع نفسه علىٰ أنه المخاطب بما سبق، أما إذا ظن أنه بعيد عن ذلك، وأن ما ذكر في الصفحات السابقة عن أحوالنا ليس هو المقصود به فلن يجدي معه علاج.

فالاعتراف بالداء نصف الدواء

كيفية الاعتراف بالداء:

والاعتراف بتفاصيل هذا الداء أمر صعب جدا وشاق علىٰ النفس، لذلك لا بد لمن يريد العلاج أن تتوافر لديه عزيمة قوية وإرادة لا يفلها الحديد ولم لا وهو مقدم علىٰ أعتىٰ معركة في الوجود.

فبدون هذه العزيمة وتلك الإرادة سيولي الدبر من أول يوم.

فإذا ما توافرت هذه العزيمة، فليبتعد قليلاً عن الضوضاء وليجلس مع نفسه في مكان هادىء ولفترات ليست بالقصيرة، وليمر علىٰ صفات عباد الله ـ التي ذكرنا كثيراً منها ـ صفة صفة وليقسها علىٰ

أفعاله، وليحاول أن يتذكر أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته السابقة وليبحث بعمق ودقة عن دوافعها وليسأل نفسه لماذا قال كذا؟ ولماذا فعل كذا؟ ولماذا لم يفعل كذا؟

وليدون ما وجده في نفسه من أفعال بعيدة عن أفعال عباد الله الصالحين، ولن تتركه نفسه ليحاسبها بل ستحاول أن تراوغه لتهرب من هذا الموقف؛ فتزين له سوء فعله وتذكره بأن كل من حوله مثله، أو تعمل علىٰ تأخير هذه المحاسبة، أو تحاول شغله بأمر آخر، وللتغلب علىٰ مراوغة النفس لا بد لنا من الاستعانة بالله عليها والإكثار من الدعاء لاستجلاب توفيق الله واستمطار رحماته، وعلينا كذلك أن نحيط أنفسنا بسياج من الخوف من الله بذكر الموت وسكراته، والقبر وظلمته ووحشته، وسؤال الملكين فيه، ولنتذكر كذلك البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أهوال يوم القيامة، والذي يساعد علىٰ هذا التذكر القراءة في كتب الرقائق والاستماع إلىٰ الأشرطة ومنها أيضاً اتباع الجنائز وزيارة المقابر ورؤية المرضىٰ، فالخوف في هذه الفترة هو أفضل سائق للنفس.

وليستمر كل منا علىٰ ذلك لا يمل من جلوسه مع نفسه بل يصبر

دائه، فالنفس قد تترك له القشور ليفرح بما اكتشفه ويبتعد عن كشف اللباب.

فلا يترك كل منا جلساته مع نفسه ولا يرضىٰ منها اعترافها ببعض القشور بل يتعمق ويتعمق وكلما اكتشف شيئاً دوّنه وعمل علىٰ معرفة ما وراءه، وهكذا حتىٰ تنتهي القشور فيدخل إلىٰ الأعماق.

وساعتها سيفاجأ كل منا بالحقيقة المؤلمة وهي أننا - أنا وأنت - قد صرنا أسرىٰ لأنفسنا، وأن أغلب تصرفاتنا ما هي إلا تحقيق لرغباتها وخدمة لحظوظها.

لا طاقة لنا بجهاد أنفسنا:

وكلما اقتربنا من نفوسنا أكثر ودققنا الحساب ظهرت هذه الحقيقة أجلىٰ وأوضح.

وعندها سيتبين لكل منا أنه لا طاقة له بجهاد نفسه؛ فالنفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب كذلك، فكيف يجاهدها وهو بين أسرها وكيف يتغلب عليها وهو أضعف ما يكون أمامها؟!

فما من موقف ظن فيه الواحد منا أنه قد انتصر علىٰ نفسه فيه إلا

[illegible] وأنها قد أخذت

فما السبيل؟!

هل أغلقت الأبواب وانتهت المعركة؟ أم ماذا؟!!

وهنا تأتي أهم خطوة من خطوات العلاج.

فالله عز وجل يعلم صعوبة وخطورة هذه المعركة، ويعلم سبحانه أنه لا طاقة لنا بجهاد أنفسنا، ويعلم كذلك أننا لا نستطيع أن نقف بمفردنا أمام أسلحتها ومغرياتها فلم يطلب منا إلا البداية.

الاستعانة بالله هي البداية:

لم يطلب منا - عز وجل - إلا هذا الاعتراف: أن نخرج من حولنا وقوتنا وأن نوقن بأنه لا طاقة لنا بنفوسنا، وأننا لو تركنا لها لصرنا أسرىٰ وعبيداً لها.

لم يطلب منا إلا أن يُرد كل منا إلىٰ أصله وحقيقته، وأصل كل منا هو الضعف، أما القوة والصحة والمال والجاه، فهي عوارض سرعان ما تزول كما قال تعالىٰ: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾[(١)].

(١) سورة الروم (٥٤).

فلا بد من الانكسار لله والذل له والاعتراف الدائم بضعفنا وفقرنا إليه، وأنه جل وعلا لو تركنا لهلكنا ولصرنا عبيداً لأنفسنا ولأهوائنا، ولاتبعنا الشيطان، ولغرقنا في بحر الدنيا. ولم لا وهو - سبحانه - الذي حبب إلينا الإيمان والطاعة وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

فمثلي ومثلك كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع، لا يردهم عنها إلا الراعي فلو تخلف عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء[(١)].

يقول ابن القيم - رحمه الله -: فالعبد ملقىٰ بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا، وإن تخلىٰ عنه ووكله إلىٰ نفسه طرفة عين ظفروا به[(٢)].

فالله عز وجل يريد منا التحقق بصفات العبودية له من ذل وانكسار وخضوع واستسلام ليمدنا - سبحانه وتعالىٰ - بصفات ألوهيته من تأييد وتوفيق ونصر كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ...** ﴾[(٣)].

فإن أردنا المدد من الله لا بد من الافتقار إليه. فكما هو معلوم أن

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٢٧).

(٢) تهذيب مدراج السالكين (٢٢٧).

(٣) سورة آل عمران (١٢٣).

الصدقة إنما تكون للفقراء والمساكين كما قال تعالىٰ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[١].

فمن أراد عون الله ومدده الذي لا ينقطع فليتحقق بالفقر إليه وليعش في حقيقة ذلك الفقر مهما أوتىٰ من أسباب الغنىٰ والقوة من مال وبنين وصحة وجاه مصداقا لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢].

والأمثلة العملية علىٰ ذلك كثيرة:

فهذا سيدنا يوسف عليه السلام ـ وقد تحقق بمعاني العبودية لله ـ يناجي ربه ويستعين به لصرف كيد النسوة عنه، فهو يعلم مدىٰ ضعفه البشري، وأنه لو تُرك لنفسه دون عون الله ومدده فسيصبو إليهن كما قال تعالىٰ علىٰ لسانه: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

فكانت الاستجابة سريعة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤].

(١) سورة التوبة (٦٠).
(٢) سورة فاطر (١٥).
(٣) سورة يوسف (٣٣).
(٤) سورة يوسف (٣٤).

وفي غزوة بدر كانت استغاثة الرسول ﷺ وصحابته بالله القوىٰ القاهر من العباد الضعفاء الفقراء الأذلاء فماذا حدث؟

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[١].. الآية.

ويقول ابن عطاء في حكمه: تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته.

ويقول: إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ـ إنما الصدقات للفقراء ـ.

ويحكي عن بعض الصالحين انه قال: دخلت علىٰ الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول، حتىٰ جئت باب الذل والافتقار فإذاهو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو ـ سبحانه ـ قد أخذ بيدي وأدخلني فيه[٢].

فهذه هي بداية الطريق إلىٰ الله.

(١) سورة الانفال (٩).
(٢) تهذيب مدراج السالكين (٢٢٩).

لا بد من الانطراح بين يديه معترفين بذلنا وانكسارنا وخضوعنا وافتقارنا له.

ليتخيل كل منا نفسه ـ كما يقول ابن القيم ـ كالآلة طريحا بين يدي وليه، ملقىٰ ببابه، واضعا خده علىٰ ثرىٰ أعتابه، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما، فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله(١).

الاعتراف بنعم الله:

وعلىٰ كل منا أن يستشعر منة الله عليه في كل خير يصيبه، فما من خير يَرِدُ علىٰ العبد إلا بمحض فضل من الله عز وجل.

ولا يظن أحد أنه بعمله أو بسبقه أو بتضحيته أو بجهاده قد استحق ورود النعم عليه، كيف يكون هذا وعمل العبد نفسه من نعم الله عليه.

فأين كانت الأعمال ـ التي ندعي أننا بسببها نستحق الإنعام ـ وقت عناية الله بنا ونحن في الأرحام؟!

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٢٦، ٢٢٧).

فلننظر إلىٰ حالنا ولنسأل أنفسنا: من الذي أخرجنا من الظلمات إلىٰ النور؟ ومن الذي أرشدنا إلىٰ طريق الهداية؟ ولماذا نحن دون غيرنا؟!

ألا ترىٰ هذا الكم من البشر وهو يسير في طريق الشيطان.. لماذا لم نكن معهم؟ أبفضل منا أم بموهبة لدينا؟ أم أنه محض فضل من الله؟!! ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

لينظر كل منا إلىٰ طاعاته، فإن كان أحدنا ممن يقوم الليل مثلا، فليسأل نفسه: من الذي أيقظه من نومه؟ أموهبته وقدراته أم فضل الله ومنته؟! ثم من الذي شرح صدره وأطلق لسانه بالقراءة والذكر والدعاء؟!

فنحن غارقون في نعم الله مغمورون بها، ومن أراد شكر هذه النعم، فهو في نعمة أخرىٰ تستوجب شكراً آخر لأنه لن يستطيع شكر الله إلا بإعانة منه سبحانه كما قال العبد الصالح ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾(٢).. الآية.

---

(١) سورة الحجرات (١٧).

(٢) سورة الأحقاف (١٥).

وهكذا بدوام الفكرة والمحاسبة وتتبع آفات النفس وتذكر نعم الله علينا تظهر النتائج.

يقول ابن القيم: وأول هذه النتائج أنه سيعلم أن مصدر جنايته هو نفسه الأمارة بالسوء فيعرف أنها جاهلة ظالمة.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها ليقيه شرها، وأن يؤتيه تقواها ويزكيها فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين.

فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه.

وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: **«قل: اللهم ألهمني رشدي. وقني شر نفسي»** وفي خطبة الحاجة **«الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»** وقد قال تعالى: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**(١). وقال **﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾**(٢). فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله مَنّ به عليها ولم يكن منها، كما قال

(١) سورة الحشر (٩).
(٢) سورة يوسف (٥٣).

تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾**(١). وقال تعالى **﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾**(٢).

فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي منَّ بهما فجعل العبد بسببهما من الراشدين **﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**(٣).

وبدوام التفتيش عن عيوب النفس وعيوب عمله، علم أنها لا تصلح لله وأن تلك البضاعة لا تشتري بها النجاة من عذاب الله فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله فيخجل من عمله وييأس من النجاة به، ويرى النجاة إنما هي برحمته تعالى وفضله، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«لن ينجي أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**(٤).

فيلقي نفسه بالباب طريحا ذليلاً مسكينا مستكينا، كالإناء

(١) سورة النور (٢١). (٢) سورة الحجرات (٧).
(٣) سورة الحجرات (٨) وانظر تهذيب مدارج السالكين (١٤٠).
(٤) تهذيب مدارج السالكين (٢٣٥).

الفارغ الذي لا شيء فيه البته، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد بل محض فضل من الله[1].

بناء الذات:

فإذا ما أتممنا مرحلة تتبع آفات النفس والخروج من حولنا وقوتنا إلىٰ حول الله وقوته واستشعرنا حاجتنا الماسة لعون الله ومدده في كل لحظة من لحظات حياتنا، وأصبحنا ننسب كل خير يرد علينا إلىٰ الله. انتقلنا إلىٰ الخطوة التالية وهي بناء الذات.

فكما ذكرنا في الفصل الأول أن الإنسان له عقل وقلب ونفس.

وأن القلب هو الملك أما العقل والنفس وبقية الجوارح فما هي إلا جنود له، وذكرنا أيضاً أن هذا القلب له أذن يسمع بها ومرآة يبصر بها. هذه الأذن تستمع إلىٰ صوت العقل وتستمع كذلك إلىٰ صوت النفس فإن كان صوت العقل ضعيفاً سيطر صوت النفس علىٰ أذن القلب وازداد تأثيره عليه عند اتخاذ القرار.

وإن طُمِستْ مرآة القلب بدخان المعاصي والبعد عن الله عمى القلب.

(١) المصدر السابق (٢٥١).

كما قال تعالىٰ: ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1].

فمن ترك العقل بدون تكوين سيطر صوت النفس علىٰ القلب، ومن ترك مرآة القلب بدون صقل فستصدأ ويعمي القلب، فلا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، ومن ترك النفس بدون ترويض ومجاهدة فستأسر القلب. لذلك لا بد من الاهتمام بها جميعاً في وقت واحد حتىٰ تؤتىٰ الثمار ويكون النتاج سليما.

١ - بناء العقل:

إن بناء العقل وتكوينه لا يكون إلا بالعلم.

فالعلم هو الذي ينمي العقل ويرفع صوته ويوسع مداركه.

(فبالعلم يعرف الإنسان خالقه وما تفرد به من صفات الكمال، وبالعلم يعرف نفسه وجهلها وظلمها، وبالعلم يعرف مداخل الشيطان.

فالعلم يفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدىٰ والضلال. فبه تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه

(١) سورة الحج (٤٦).

توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب. وهو إمام، والعمل مأموم.. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة والغني الذي لافقر لمن ظفر بكنزه.

مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربى، وبذله صدقة، ومدارسته تعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام، **قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.**

ويكفي في شرفه أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها[1].

فبدون العلم لا يأمن العبد على نفسه الانحراف عن الصراط المستقيم، فالكثير قد أوتى من قبل جهله وقلة علمه.

لذلك فقد قال العلماء: **إن كل سير لا يصاحبه علم يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان**. فالشيطان عندما يرى عبداً من عباد الله

(١) تهذيب مدارج السالكين (٤٨٤، ٤٨٥).

قد عزم على السير إلى الله فإنه يحاول منعه بكل الطرق والوسائل.

منها: محاولة تشكيكه في أمور العقيدة فيطرح عليه أسئلة عن الخلق وعن القدر وغير ذلك من مسائل العقيدة. فإن لم يتحصن الإنسان بالله أولا وبحصن العلم ثانياً فسيسقط في براثن الشيطان ويبدأ في الانحراف عن الصراط المستقيم كما كان حال الكثير من الفرق الضالة التي نسمع عنها.

ومنها: أنه قد يزين للعبد ترك الدنيا والانعزال عن المجتمع بدعوى التفرغ لإصلاح القلب وتزكية النفس، وهذه من أكبر خدع الشيطان على الإنسان فهو يلبس فيها لباس الواعظ المصلح، لذلك لن يستطيع العبد أن يتخلص منها إلا بالعلم والفهم الصحيح للدين.

ومنها: أنه قد يزين له أعمالاً ويصده عن أخرى.

يقول ابن القيم: فمن الناس من يتقيد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بزي وهيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه، فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى مصدودون عنه.

فترىٰ أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة وتفريغ القلب، ويعد العلم قاطعا له عن الطريق فإذا ذكر له الموالاة في الله والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدّ ذلك فضولا وشرا، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك أخرجوه من بينهم. فهؤلاء أبعد الناس عن الله وإن كانوا أكثر إشارة والله أعلم(١).

ومنها أن الشيطان سيحاول أن يوقع العبد في البدع والشبهات، فإن لم يتحصن بحصن العلم ويتبع هدىٰ رسول الله ﷺ ويقتفي أثره فسيقع فيها دون أن يدري.

فالرسول ﷺ وهو المعصوم وأفضل الخلق أجمعين لم يترك الزواج ولم يعتزل الناس ولم يترك التداوي. فلا ينبغي أن نخالفه قيد أنملة، فالشريعة هي الحجة وأفعال الرسول ﷺ وتوجيهاته هي الميزان الذي نزن به أفعالنا.

فنجعله كما يقول ابن القيم: إماما وقدوة وحاكما، فنجيبه إذا دعانا، ونقف معه إذا استوقفنا، ونسير إذا سار بنا، ونقيل إذا قال، وتنزل إذا نزل ونغضب لغضبه، ونرضىٰ لرضاه، وإذا أخبرنا عن شيء

(١) تهذيب مدارج السالكين (٥٧٤، ٥٧٥).

أنزلناه منزلة ما نراه بأعيننا، وإذا أخبرنا عن الله بخبر أنزلناه منزلة ما نسمعه عن الله بآذاننا(١).

فكما قال الجنيد: الطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا علىٰ من اقتفىٰ آثار الرسول ﷺ.

فاتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم، والمنحرفون عن طريقه إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم قعد بهم عدولهم عن طريقه(٢).

والخلاصة أنه بدون العلم لن يستطيع الإنسان أن يسير سيراً صحيحاً مأمونا إلىٰ الله، فالطريق إلىٰ الله مليء بالعقبات والمنعطفات ولن يتمكن السائر فيه من رؤيتها إلا بالاستعانة بالله ثم بالتحصن بحصن العلم.

والعلم الذي يقصده العلماء ليس مقصوراً علىٰ فرع واحد من الفروع، بل إن كل فروع العلم مطلوبة لمن أراد أن يكون عقله تكوينا صحيحا متكاملا ولكن هناك فروع تأتي في المقدمة.

(١) تهذيب مدارج السالكين (٥٥٦).
(٢) المصدر السابق (٥٥٧).

فلا بد أن يبدأ الإنسان بتعلم علم العقيدة فيصحح معتقداته ويسد المنافذ على الشيطان، لأن الشيطان كما ذكر العلماء يُكثر من الوسوسة كلما أوغل العبد في الطريق[١].

ولا بد للإنسان من تعلم علم الأخلاق والتهذيب والذي سماه الإمام ابن تيمية: علم السلوك[٢].

ولا بد كذلك من معرفة الحلال من الحرام في العبادات والمعاملات التي يتعامل بها الإنسان[٣].

---

(١) ومن كتب هذا العلم: العقيدة الطحاوية وشرحها.

(٢) ومن كتب هذا العلم: كتابات ابن القيم: مدارج السالكين - الفوائد - الداء والدواء - الوابل الصيب من الكلم الطيب - زاد المهاجر إلى ربه - طريق الهجرتين.
ومنها بعض كتابات ابن تيمية: كجزئي السلوك والتصوف - للرد على ادعاءات الصوفية - في مجموع الفتاوى.
ومنها كتابات ابن الجوزي كالتبصرة - ذم الهوى - صيد الخاطر - صفة الصفوة - تلبيس إبليس - اللطائف والطب الروحاني.

ولا بد أيضاً من معرفة هدى رسول الله ﷺ في أحواله كلها: في سلمه وحربه، في أكله وشربه، في نومه ويقظته، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وفي تعامله مع أهله، وفي سائر أحواله كلها[١]. ولا بد كذلك من تعلم القرآن وحفظه وتدبره والاطلاع على علومه وتفسيره فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه.

٢ - تعبيد القلب لله:

كما ذكرنا في الفصل الأول أن القلب هو محل المعرفة والإبصار في الإنسان، وهو الذي يسير إلى الله، ولقد سخر له الله عز وجل كل ما في الأرض ليؤدي مهمة العبودية له.

فالمطلوب من القلب عبادة الله، وتتمثل هذه العبادة في الذل لله، والخضوع له، والاستسلام لقضائه وقدره، والإنابة إليه، والخشية منه، وطاعة أوامره واجتناب نواهيه، وحب ما يحبه وبغض ما يبغضه، [illegible] والاه، ومعاداة من يعاديه، والفرح بفضله والحزن عند

وكما ذكرنا أيضاً أن لهذا القلب أذنا يسمع بها ومرآة يبصر من خلالها، هذه المرآة إذا ما تركت بدون رعاية وتعهد أظلمت بدخان المعاصي وتكونت أمامها حجب كثيرة تمنع القلب من الرؤية فيصير أعمىٰ لا يرىٰ.

وكلما ازداد الظلام وازداد الصدأ ازدادت سطوة النفس علىٰ القلوب. ومن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة. [illegible]

ولكي تؤتي هذه التوبة ثمارها ويبدأ القلب في الإشراق، لا بد

من قطع أسباب المعاصي وإزالة الحُجب من أمام مرآة القلب.

فهذه الحُجب من كبر ونفاق وعجب وغرور ورياء وحب للدنيا هي التي تحجب القلب عن الله، والإنسان لا يستطيع إزالة هذه الحجب من أصلها ولكن في إمكانه قطع المدد عنها فتذبل وتخمد.

فإذا ما استطاع العبد أن يخمد هذه الحُجب بقطع المدد عنها [illegible] الظاهرة والباطنة أشرق القلب بنور الإيمان

استطاع إلىٰ ذلك سبيلا، [illegible] إلى المسجد وينتظر الأذان كلما سنحت له الفرصة، وليحشد كل منا في

محبوبة وما تدعو إليه محبوب، فهي لا تدعو إلا إلىٰ ما تشتهي، بخلاف جهاد الكفار فإن الطباع تحمل علىٰ خصومة الأعداء.

قال ابن المبارك في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[١]. هو جهاد النفس والهوىٰ[٢].

وجهاد النفس يبدأ بمخاصمتها ورفع راية الجهاد عليها. يقول ابن عطاء: **فالجهاد ليس معه حلاوة وما معه إلا رؤوس الأسنة فجاهد نفسك هذا هو الجهاد الأكبر واعلم أن الثكلىٰ لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله.**

ولكن كيف نجاهد من تحبه؟!!

إننا لن نستطيع أن نعلن الحرب ونرفع راية الجهاد علىٰ أنفسنا إلا إذا خاصمناها واتخذناها عدوا. ولن يتم لنا ذلك إلا بتتبع آفاتها حتىٰ نوقن بأنها لا تريد بنا إلا الشر ومن وراء هذا الشر النار والعياذ بالله. فإذا ما رسخ هذا المعنىٰ في أذهاننا فسنبدأ تلقائيا في مخاصمتها وإعلان الحرب عليها، وهذه الحرب لن تتوقف حتىٰ الموت فكما قالوا: **يموت المؤمن وسيفه يقطر دما.**

خلال بعض تصرفاتنا فهذا مظهر من مظاهر الرياء وحب الجاه.

وهكذا نفتش ونفتش داخل نفوسنا، وندون ما نصل إليه حتىٰ لا نبدأ من الصفر في كل جلسة.

فلا بد لنا في البداية من وقفة شديدة مع النفس كما ذكرنا في أول هذا الفصل بعيداً عن الضوضاء، نتذكر فيها أعمالنا ونسأل أنفسنا عن دوافع هذه الأعمال وعلينا بعد الاستعانة بالله الاطلاع في الكتب التي وصفت مظاهر أمراض القلوب كربع المهلكات في كتاب إحياء علوم الدين أو مختصر منهاج القاصدين.

فنمر علىٰ المرض ونقيس أفعالنا عليه ونتعمق في البحث عن آثاره داخلنا، فإذا ما وجدنا مثلا أننا نسعىٰ للشهرة والمعرفة وسط الناس من خلال بعض تصرفاتنا فهذا مظهر من مظاهر الرياء وحب الجاه.

وهكذا نفتش ونفتش داخل نفوسنا، وندون ما نصل إليه حتىٰ لا نبدأ من الصفر في كل جلسة.

فإذا ما تم لنا ذلك علىٰ الوجه الصحيح، وحدد كل منا مرضه واعترف به، يبدأ بعد ذلك في العلاج وهو بصورة عامة ـ كما ذكر علماء التربية ـ سلوك مسلك المضاد. فمن رأي في نفسه إحساسا بالذات وشعورا بالأفضلية والفوقية علىٰ غيره فليبدأ في تكلف أفعال المتواضعين مدة طويلة، وليكثر من الجلوس مع الفقراء والمساكين، وليبحث عمن لهم أثر في الدين والدنيا من أصحاب الدعوة والعلم،

فجاهد نفسك هذا هو الجهاد الأكبر واعلم أن الثكلىٰ لا عيد لها، بل العيد لمن قهر نفسه، لا عيد إلا لمن جمع شمله.

ولكن كيف نجاهد من تحبه؟!!

إننا لن نستطيع أن نعلن الحرب ونرفع راية الجهاد علىٰ أنفسنا إلا

الأفضلية لم يصبهم ما أصابه من الكبر والغرور بل كانوا أكثر تواضعاً منه.

ومن وجد أنه يحب أن يرىٰ الناس مكانه فليلزم نفسه الإسرار في أعماله وليكن جهاده معها علىٰ عدم إفشاء هذه الأعمال.

ومن رأي في نفسه حب الكلام والاستئثار بالحديث فليلزم نفسه الصمت وليجاهدها علىٰ ذلك.

ومن رأي في نفسه عدم حب الخير للأقران فليدعو لهم بظهر الغيب، وليذهب لتهنئتهم كلما أصابهم خير، وليكثر من مدحهم في غيابهم أمام الآخرين، وهكذا.

هذا في بداية الطريق. أما بعد ذلك فليداوم كل منا علىٰ مراقبة عمله، فقبل أدائه يعمل علىٰ تحري الإخلاص فيه، ثم يراقب نفسه أثناء أدائه، وبعد الانتهاء منه يحاسب نفسه ويعاتبها علىٰ تقصيرها فيه، فقد كان هذا هو دأب الصالحين.

يقول الحسن البصري في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1]. قال: لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردت

(١) سورة القيامة (٢).

بكلمتي، ماذا أردت بأكلتي، ماذا أردت بشربتي، والفاجر يمضي قُدما لا يعاتب نفسه.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متىٰ أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت. قال: ومتىٰ أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وكان رحمه الله إذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ويقول: اللّهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

وعن أنس بن مالك قال: سمعت عمر بن الخطاب يوما، فخرجت معه حتىٰ دخل حائطا، فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب! بخ بخ والله ابن الخطاب! والله لتتقين الله أو ليعذبنك[1].

وعن ميمون بن مهران قال: لا يكون الرجل تقيا حتىٰ يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه[2].

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلىٰ المصباح فيضع إصبعه ثم يقول: حس، ثم يقول: يا حنيف ما حملك علىٰ ما صنعت يوم كذا، ما حملك علىٰ ما صنعت يوم كذا.

(١) ذم الهوىٰ (٤١).

(٢) ذم الهوىٰ (٤٣).

ويقول محمد بن المنكدر: إني خلفت زياد بن ابي زياد مولىٰ ابن عباس وهو يخاصم نفسه في المسجد، يقول: اجلسي، اين

[illegible]

ولنستعن علىٰ أنفسنا بالصوم فنكثر منه في البداية. فالنفس ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ لا تنكسر ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع [illegible] وتقف علىٰ عجزها.

[illegible]

[…] إلىٰ أحسن من هذا المسجد؟ انظري […] فلان ودار فلان؟!(١).

[…]ال المؤمن مع نفسه قبل العمل وبعده […]ه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما […]قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما […]م أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. […] فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن […]ة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني

وقد سُئل حكيم: باي قيد أقيد نفسي؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإخمال الذكر وترك العز، وصغرها بوضعها تحت ابناء الآخرة، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها.

وتماما للفائدة فلقد ألحقنا في نهاية هذا الفصل نموذجا لورد محاسبة النفس. فلينظر كل منا إليه وليضف عليه ما يرىٰ أنه محتاج إليه، وليحذف منه ما يرىٰ أنه في غنىٰ عنه.

تريدين؟ أين تذهبين؟ أتخرجين […] إلىٰ ما فيه، تريدين أن تبصري […]

ويلخص الحسن البصري […] فيقول: إن المؤمن قوام علىٰ نف[…] خف الحساب يوم القيامة علىٰ […] شق الحساب يوم القيامة علىٰ […] إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه […] حاجتي، ولكن والله ما من […]

اتَّقُوا اللَّهَ﴾.. الآية[١].

وهي النور الذي يبدد ظلمات الشك، ويذهب وساوس الشيطان. **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[٢].

فعلىٰ كل من أراد بناء ذاته العمل علىٰ تقوىٰ الله، والاجتهاد في تحري الأسباب الموصلة لذلك.

ومن أهم هذه الأسباب قصر الأمل، والتذكر الدائم للموت والقبر والبعث والحشر والحساب والجنة والنار والقدوم علىٰ الله عز وجل.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل.**

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: **إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك**[٣].

---

(١) سورة النساء (١٣١). (٢) سورة الحديد (٢٨).

(٣) رواه البخاري.

النقطة الثانية: أنه لا بد لكل منا أن يسير في طريق تكوين العقل وتعبيد القلب لله وجهاد النفس في آن واحد. فلا يترك الاهتمام بالعلم من أجل الاهتمام بالقلب ولا يترك الاهتمام بالنفس من أجل التفرغ للعلم. فمحاور بناء العقل والقلب والنفس ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا.

فلكي يسهل علىٰ الإنسان جهاد نفسه لا بد له من قوة إيمانية تدفعه لذلك، وهذا لن يتأتى إلا بالاهتمام بالقلب فإذا ما أتم ذلك دون الاهتمام بالعلم فسيصبح فريسة سهلة للشيطان يلعب به كيفما أراد فيوقعه في البدع والشبهات.

وخلاصة القول أنه إذا أردنا أن يؤتي هذا العلاج ثماره فلا بد من الاهتمام بالثلاثة محاور في آن واحد.

* * *

الفصل الخامس

من وصايا المربين

الفصل الخامس
من وصايا المربين

١ – لا بد لمن أراد العلاج أن يتخذ له مربيا ينهض به، ويأخذ بيده، ويسير معه في طريقه إلىٰ الله مبيناً له معالم الطريق، ومحذراً إياه من منزلقاته وعقباته.

يصفه أحد الصالحين فيقول: ليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي أثرت فيك إشارته[١]، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذي نهض بك حاله...

هذا المربي بهذه الصفات وغيرها يندر وجوده، ومن الصعب علىٰ الكثير منا العثور عليه، فإن وجده صَعُبَ عليه ملازمته.

ولله در حسن البنا ـ رحمه الله ـ عندما أدرك أنه لا صلاح للأمة إلا بصلاح الفرد، ولا صلاح للفرد إلا بإصلاح النفس، وإصلاح النفس وجهادها بدوام محاسبتها. فطريق التربية هو الطريق الوحيد الذي ينهض بالأمة ويقيلها من عثرتها، ولم لا والهدف من ورائه تكوين أمة جديدة جاهدت نفسها وانتصرت عليها فأصبحت علىٰ غيرها أقدر.

ولقد أدرك ـ رحمه الله ـ أن الفرد في بداية طريقه إلىٰ الله يحتاج إلىٰ مربٍّ ينهض به، ويأخذ بيده. هذا المربي قد ندر وجوده وإذا ما عثر عليه واحد فلن يعثر عليه آخرون. لذلك فقد أصبح عدم وجوده من أهم العقبات التي تعترض السالك في هذا الطريق، ولقد استطاع حسن البنا ـ بفضل من الله وتوفيقه ـ أن يتغلب علىٰ هذه المشكلة بوضع نظام تربوي قوي يستطيع الفرد من خلاله أن يُكَوِّن ذاته، وسمي هذا النظام التربوي بنظام الأسر.

فالأسرة هي المحضن التربوي للفرد، يجتمع فيها من توافرت لديه الرغبة في إصلاح نفسه وتكوين ذاته، ويسير أفراد الأسرة الواحدة معا في طريقهم إلىٰ الله يشد بعضهم أزر بعض، لا يضرهم من خذلهم ... متضرعين إليه ألا يخذلهم ويتركهم لنفوسهم

من منزلقاته وعقباته.

يصفه أحد الصالحين فيقول: ليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي أثرت فيك إشارته[١]، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذي نهض بك حاله...

هذا المربي بهذه الصفات وغيرها يندر وجوده، ومن الصعب

ولكل اسرة نقيب، هذا النقيب أول ما يميزه أنه قد سبق إخوانه في السير في الطريق، واستطاع أن يقطع شوطاً كبيراً في تكوين ذاته فتولدت عنده المقدرة علىٰ النهوض بالافراد والسير بهم خطوات وخطوات في بداية طريقهم إلىٰ الله حتىٰ يشتد عودهم ويقوي ساعدهم. وبقدر الجهد المبذول من النقيب مع نفسه أولا ومع إخوانه ثانياً يكون نتاج هذه التربية.

﴿ ... وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[1] .. الآية.

* * *

٢ – في بداية بناء كل منا لذاته لا بد له من مناخ هادئ يعيش في آجوائه، فلقد وصىٰ الكثير من علماء التربية بالبعد عن الضوضاء في بداية العلاج والبناء.

يقول ابن عطاء الله السكندري في حكمه الجليلة:

ادفن وجودك في أرض الخمول. فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

(١) سورة الفتح (٢٩).

فلقد شبه ـ رحمه الله ـ بداية العبد بالبذرة التي تحتاج في بداية تكوينها لأن تدفن في باطن الأرض بعيداً عن أشعة الشمس، فتأخذ دورتها، وتنمو نموا بطيئا، فإذا ما أذن لها الله بالظهور، ارتفعت علىٰ سطح الأرض بعد فترة حضانة كافية اكتسبت فيها القدرة علىٰ الظهور أمام الضوء.

أما إذا تركنا البذرة علىٰ سطح الأرض ولم ندفنها في باطنها فلن يكون لها نتاج ولن تأتي بالثمار المرجوة لتعرضها لمناخ لم تؤهل له بعد.

وكأنه يريد أن يقول: لن ينتفع منك الخلق انتفاعا كاملا، لا من دعوتك، ولا من علمك، إلا إذا مرت عليك مرحلة في حياتك تدفن فيها نفسك في أرض خمول الذكر فلا يشعر الناس بوجودك وتكوّن فيها عقلك وتغذيه بالعلم، وقلبك بالأوراد، ونفسك بالمجاهدة.

ولقد كان الرسول ﷺ يختلي بنفسه قبل النبوة في غار حراء وبعد النبوة كان يعتكف في العام عشرة أيام في آخر رمضان، وفي العام الذي توفي فيه ﷺ اعتكف عشرين يوماً.

وليس المقصد من ذلك هو اعتزال الناس، بل المقصد هو إتاحة أكبر قدر من الهدوء لتكوين الذات. فالمطلوب من العبد في هذا الوقت الأخذ أكثر من العطاء، فإن فاتته هذه المرحلة دون أن يأخذ

منها ما يكون ذاته كان نتاجه سيئا.

فمن أخطر الأشياء علىٰ العبد التعرض لشمس الشهرة قبل الأوان. فالبعض عندما تُسلط عليه الأضواء دون أن يكون معداً لذلك يصبح حاله كحال من يقترب من السراج فكلما اقترب رأىٰ نفسه كبيرا، وحقيقة الأمر أن حجمه لم يتغير وإنما ظله هو الذي كبر.

ولقد -خدع هذا الظل الكثير، فرأوا أنفسهم أكبر بكثير مما هم عليه، فنظروا إلىٰ غيرهم علىٰ أنهم دونهم، وانعكس ذلك الإحساس علىٰ تصرفاتهم فأصبح شغلهم الشاغل فعل ما يؤكد تلك الحقيقة، والابتعاد عما يظهرهم بمظهر الجاهل أو المحتاج إلىٰ المعرفة فترىٰ أحدهم يظن في نفسه أنه من أهل العلم، ويضع نفسه في مصاف العلماء، مع أنه لم يرهق نفسه في الاطلاع أو الحفظ أو المدارسة، ولم يسلك في يوم من الأيام سبيل طالب العلم. فلقد زُج به إلىٰ الأضواء وإلىٰ شمس الشهرة دون إعداد، فإذا ما سُئل عن أمر من الأمور تراه يجيب دون دراية لينفي عن نفسه صفة الجهل، وإن رُد عليه شيء من قوله غضب، وإن حاج أو ناظر أنِفَ أن يُرد عليه، وإن وُعظ استنكف من قبول النصح فهو لا يرىٰ نفسه إلا علىٰ صفحة مرآة مقعرة، ويتخيل الآخرين أنه الأعلى عليه في الحقيقة.

فمثل هذا الشخص سرعان ما يُكشف أمره، فقد حكم علىٰ نفسه بالهلاك فبدلا من أن يأخذ فرصته في التكوين وجد نفسه فجأة في القمة تحت شمس الشهرة محاطا بالناس، يشيرون إليه بالبنان، فاستحوذت الدنيا بمظاهرها عليه،فلم يجد وقتا لقلبه ليرعاه أو لنفسه ليزكيها أو لعقله ليغذيه بنور العلم.

ولله در الإمام الشافعي الذي يؤكد علىٰ هذا المعنىٰ فيقول: من طلب الرياسة فرت منه وإذا تصدر الحدث فاته علم كثير[1].

* * *

٣ – طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات:

يقول الإمام ابن القيم: فالعمل الصالح قد تستولىٰ عليه النفس وتصيره جنداً لها تصول به وتطغىٰ، فترىٰ العبد أزهد ما يكون وأعبد ما يكون وأشد اجتهادا. وهو أبعد ما يكون عن الله، وأصحاب الكبائر أقرب قلوباً إلىٰ الله منه، وأدنىٰ منه إلىٰ الإخلاص والخلاص[2].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢ / ٢٥٢).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٥٧٣).

* * *

٣ – طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات:

يقول الإمام ابن القيم: فالعمل الصالح قد تستولىٰ عليه النفس

علىٰ تصرفاتهم فأصبح شغلهم الشاغل فعل ما يؤكد تلك الحقيقة، والابتعاد عما يظهرهم بمظهر الجاهل أو المحتاج إلىٰ المعرفة فترىٰ أحدهم يظن في نفسه أنه من أهل العلم، ويضع نفسه في مصاف العلماء، مع

لهذا كان العارفون وأرباب البصائر إذا فتح الله عليهم بشيء انحرفوا إلىٰ طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس، واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا علىٰ الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس[1].

فهذا رسولنا ﷺ في فتح مكة، يوم أن أذل الله له الذين أخرجوه هو وأصحابه من ديارهم وأموالهم وحاربوهم ليردوهم عن دينهم. دخل مكة وقد تعمم بعمامة سوداء، وأحنىٰ رأسه حتىٰ مست ذقنه قربوس سرجه انخفاضا وانكسارا وتواضعا لربه تعالىٰ. مع أن النفس في مثل هذه الأوقات يتملكها السرور والفرح بالنصر والانتشاء ولكنه ﷺ كان يعيش في حقيقة عبوديته لربه.

يقول ابن القيم: فأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم علىٰ مثل هذه العبودية ولارضيها لسيده.

ويقول: ولا يكمل هذا المعنىٰ إلا بأن تربأ بنفسك عن تعيير

(١) تهذيب مدارج السالكين (٤٥٦).

المقصرين، فلعل تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثما من ذنبه وأشد من معصيته لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، ولعل كسرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء بنفسه، والتخلص من مرض الدعوىٰ والكبر والعجب ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك والاعتداد بها، والمنة علىٰ الله وخلقه بها.

فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله[1].

ويقول ابن عطاء الله: ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضىٰ عليك بالذنب فكان سببا في الوصول. معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا.

* * *

(١) المصدر السابق (١١٨ - ١٢٠).

٤ - ضرورة التلطف مع النفس

يقول ابن القيم:

النفس إذا نالت حظاً صالحا من الدنيا قويت به وسرت، واستجمعت قواها وزال تشتتها.

ويقول ابن الجوزي:

أعجب الأشياء مجاهدة النفس، لأنها تحتاج إلىٰ صناعة عجيبة. فإن أقواما أطلقوها فيما تحب، فأوقعتهم فيما كرهوا. وإن قوما بالغوا في خلافها حتىٰ منعوها حقها، وظلموها، وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم، فمنهم من أساء غذاءها فأثمر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها.

ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس وآلت إلىٰ ترك فرض أو فضل، من عيادة مريض، أو بر والدة.

وإنما الحازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه[١].

---

(١) صيد الخاطر (١٦٦).

ويقول: واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف والتنقل من حال إلىٰ حال ولا ينبغي ان يؤخذ أولا بالعنف ولكن بالتلطف ثم يمزج الرغبة والرهبة.

وقد كان بعض السلف يشتهي الحلواء فيعدها لنفسه فإذا صلىٰ بليل أطعمها، وكان الثوري يأكل ما يشتهي، ثم يقوم إلىٰ الصباح. وما زال المحققون يتلطفون بنفوسهم إلىٰ ان ملكوها فقهروها[١].

فعلىٰ كل منا أن يتلطف مع نفسه ولا يجعل الترهيب هو سائقها علىٰ الدوام بل الترغيب والترهيب معا. فالعاقل من يعطيها حظها المباح ويطالبها بما عليها من الحق.

* * *

٥ - من عوائق الطريق:

ترك الجهاد وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يكون به إقامة الدين بدعوىٰ التفرغ لإصلاح النفس.

يقول ابن القيم:

إذا عزم العبد علىٰ السفر إلىٰ الله تعالىٰ، عرضت له الخوادع

---

(١) الطب الروحاني لابن الجوزي (١٣٢).

والقواطع، فينخدع أولاً بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس. فإن وقف معها انقطع وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه ابتلىٰ بوطء عقبه(١)، وتقبيل يده والتوسعة له في المجلس والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك. فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه أُبتلىَ بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلىٰ بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية(٢) وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا. فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظراً إلىٰ مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف علىٰ محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلىٰ الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها علىٰ مرضاة سيده وأمره. هذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء ألبتة، وبالله التوفيق(٣).

(١) أي بالسير خلفه.

(٢) توجه القلب بكل مشاعره إلىٰ الله وحضوره معه.

(٣) الفوائد لابن القيم (١٥٢).

ولقد بلغ عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رجالاً خرجوا من الكوفة ونزلوا قريبا يتعبدون فأتاهم، ففرحوا بمجيئه، فقال لهم: ما حملكم علىٰ ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد، فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتىٰ ترجعوا(١).

فالعبد لا يجوز له ترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي لإقامة الدين من أجل التفرغ لإصلاح النفس.

يقول ابن كثير: فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر(٢).

* * *

(١) الزهد لابن المبارك (٣٩٠).

(٢) مختصر ابن كثير (١/ ٥٩).

الفصل السادس

نموذج لورد المحاسبة

الفصل السادس
نموذج لورد المحاسبة

ذكرنا في الفصل الرابع أن من وسائل العلاج محاسبة النفس بصورة مستمرة، فعلىٰ كل منا ان يجلس مع نفسه يومياً ولو لبضع دقائق شريطة أن يكون صافي الذهن، وهذا الصفاء عادة ما يكون في وقت الفجر وبعد أداء الصلاة. وهذه الجلسة تبدأ باستعراض شريط أحداث اليوم المنصرم ثم توجيه أسئلة الورد للنفس، وبعد الانتهاء من الإجابة علىٰ الأسئلة بحصر كل منا الآفات والذنوب التي اقترفها ثم يتوب إلىٰ الله منها، ويعزم علىٰ ألا يعود إليها في اليوم التالي.

وبمداومة المحاسبة وبمراقبة النفس قبل العمل وأثنائه تقل الآفات ـ بمشيئة الله ـ.

وليحذر كل منا من ترك محاسبة نفسه ولو يوما واحدا، فهذا من أسمىٰ أمنيات النفس.

فبدون هذه المحاسبة يعيش كل منا في غفلة عن حقيقة أمره، بل وقد يظن في نفسه الصلاح بما يؤديه من الطاعات متناسيا ما ارتكبه من آثام.

يقول تعالىٰ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١].

فتقوىٰ الله هي التي تعيننا علىٰ محاسبة أنفسنا، ومن خلال هذه المحاسبة يتمكن كل منا من معرفة عيوبه، ومن ثم يستشعر مدىٰ ضعفه وعجزه وحاجته إلىٰ ربه.

فلا بد من الأمرين معاً. فبدون المحاسبة لن يتعرف الإنسان علىٰ عيوبه، وبدون التقوىٰ لن يتمكن من محاسبة نفسه.

والورد الذي بين أيدينا ما هو إلا نموذج. فلينظر القارئ إليه وليضف عليه ما يرىٰ أنه محتاج إليه وليحذف منه ما يرىٰ أنه في غنىٰ عنه، والله الموفق.

* * *

---

(١) سورة الحشر (١٨، ١٩).

ورد المحاسبة

- هل استحضرت النية قبل بدء القيام بالطاعة؟
- هل اجتهدت في تحرى السنة قبل البدء في العمل؟
- هل كنت معظماً لشعائر الله مسارعا لتلبية أوامره؟
- هل كنت معظماً لحرمات الله مسارعاً لاجتناب نواهيه؟
- هل خالفت هواك وسارعت إلىٰ صلاة الجماعة في المسجد؟
- هل استيقظت قبل الفجر وتهجدت لله ثم جلست تستغفر الله حتىٰ أذان الفجر؟
- هل تهاونت في تكبيرة الإحرام؟
- هل تجمعت الدنيا عليك عند الصلاة فخرجت من الصلاة كما دخلت فيها؟
- هل حافظت علىٰ السنن الرواتب للصلوات المكتوبة؟
- هل أفشيت سرك وتحدثت بأعمالك وطاعتك أمام الناس؟
- هل توارد علىٰ ذهنك خاطر إعجاب بعملك؟ وهل قاومته أم استسلمت له؟

- هل كان تأثير قيامك بالطاعة: الإحساس بأن لك مكانة ومنزلة عند الله بها؟
- هل نظرت إلىٰ غيرك نظرة انتقاص ولنفسك نظرة علو وإجلال لقيامك بأداء عمل دونهم؟
- هل تاقت نفسك للإمامة أو الإمارة أو تقديم الناس لك؟
- هل ضاقت نفسك لعدم تقديم الناس لك؟
- هل رجوت أحدا أو انتظرت منه شيئاً - كخدمة أو مال - وتعلق قلبك به؟
- هل آثرت غيرك علىٰ نفسك أم لم تفكر إلا في نفسك وراحتها؟
- هل كظمت غيظك أم كنت سريع الانفعال؟
- هل تمنيت خطأ من يحاورك لإثبات صحة رأيك؟
- هل تكلمت عن نفسك بما يزكيها؟
- هل حسدت أحداً علىٰ خير أوتيه؟
- هل حاولت منع الخير عن أحد من الناس؟
- هل سخرت في نفسك من أحد؟

- هل اهملت من يحدثك ولم تعره اهتماما؟
- هل ظننت سوءاً بأحد من المسلمين؟
- هل كان صدرك سليماًتجاه إخوانك؟
- هل نصحت أحداً بنصحية أمام الناس؟
- هل رآك أحد ممن تعرف في موضع حسن فانتشيت؟
- هل ضاقت نفسك عندما رآك أحدٌ ممن تعرفه في موضع لا تحب أن يراك فيه؟
- هل خشيت ان تقول لا أدري حتىٰ لا تنتقص مكانتك عند الناس؟
- هل اغتررت بنفسك وظننت أنك تستطيع القيام بأفعال معينة بسبب خبرتك وذكائك؟
- هل انتشيت وانبسطت نفسك عند سماعك مدح الناس لك؟
- هل ضاقت نفسك عند سماعك نقد الناس لك؟
- هل سارعت لخدمة من حولك وقت حاجتهم لها أم تباطأت وتكاسلت لتعطي الفرصة لغيرك ليقوم بها؟
- هل رضيت بما قسمه الله لك من الرزق أم شكوت وتسّخطت؟

- هل رضيت بقضاء الله أم سخطت؟
- هل كنت عفيفاً أم أكثرت من سؤال الناس؟
- هل احتسبت عند الله عملك وجهادك وما تلقاه من الأذىٰ؟
- هل جلست مجلسا فارغاً وأكثرت فيه من اللغو والضحك؟
- هل سعيت بنميمة؟
- هل استهزأت بأحد؟
- هل تحريت الصدق فيما تقول؟
- هل احتقرت أحداً؟
- هل شمِتُّ في أحد؟
- هل حفظت الأمانة وأديتها؟
- هل غضبت لنفسك وحاولت الانتصار لها؟
- هل ظلمت أحداً من الناس؟
- هل قلت الحق ولو كان علىٰ نفسك أو أقربائك؟
- هل تثبتَّ مما تقول؟

- هل كنت ذليلاً علىٰ إخوانك؟
- هل كنت رفيقا بالناس؟
- هل مننت علىٰ أحد بخدمتك له؟ وهل ذكّرته من قريب أو بعيد بها؟ وهل تحدثت عنها أمام الناس؟
- هل سالت عن شيء لا يعنيك؟
- هل شاركت في مجلس غيبة ولم تذب فيه عن عرض المغتابين؟
- هل قاطعت المتحدث؟
- هل أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر؟
- هل مدحت أحداً من الناس في وجهه؟
- هل خارت عزائمك ولم تقدر علىٰ نصح أخيك؟
- هل كنت حليما مع من تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟
- هل كنت مهموماً بأحوال المسلمين؟
- هل اتقيت الله في كسبك وتحريت الحلال فيه وابتعدت عن الشبهات؟
- هل قدمت مصلحة دينك عندما تعارضت أمامك مع مصلحة دنياك؟
- هل كنت تمشي علىٰ الأرض هونا أم اختلت في مشيتك؟
- هل تقعرت في كلامك أو تنطعت في حركاتك؟
- هل كنت خفيف الظل أم كنت عبوسا؟
- هل كنت منظما في شئونك، مخططا لأولوياتك؟
- هل غششت او غدرت او خنت أحداً من المسلمين؟
- هل صمت تطوعا لله؟
- هل أكثرت من الطعام والشراب حتىٰ بلغت درجة الشبع والامتلاء؟
- هل حافظت علىٰ بصرك فلم تنظر إلىٰ ما لا يحل لك؟

ت ذليلا علىٰ إخوانك؟
ت رفيقا بالناس؟
نت علىٰ أحد بخدمتك له؟ وهل ذكّرته من قريب أو بعيد
هل تحدثت عنها أمام الناس؟
لت عن شيء لا يعنيك؟
هل
هل
هل
بها؟
هل
- هل اتقيت الله في كسبك وتحريت الحلال فيه وابتعدت عن الشبهات؟
- هل قدمت مصلحة دينك عندما تعارضت أمامك مع مصلحة دنياك؟
- هل كنت تمشي علىٰ الأرض هونا أم اختلت في مشيتك؟
- هل تقعرت في كلامك أو تنطعت في حركاتك؟

- هل قمت بصلة رحمك؟
- هل أحسنت إلىٰ جيرانك؟
- هل وصلت من قطعك؟
- هل أعطيت من حرمك؟
- هل عفوت عمن ظلمك؟
- هل تصدقت وأنت معسر؟
- هل أكثرت من ذكر الموت؟
- هل حافظت علىٰ ذكر الله في كل مناسبة؟
- هل أكثرت من الاستغفار؟
- هل أكثرت من التهليل والحوقلة والصلاة علىٰ الرسول ﷺ؟
- هل حافظت علىٰ ورد القرآن؟
- هل حضرت درساً للعلم؟
- هل طالعت في كتب العلم؟
- هل كان لك عمل إيجابي للإسلام؟

- هل تاقت نفسك للشهادة في سبيل الله؟
- هل أتبعت السيئة الحسنة؟
- هل سارعت إلىٰ التوبة؟

* * *

الخاتـمـة

وبعد..

فيا أخي العزيز...

يا من أجهشت بالبكاء كلما سمعت أو قرأت عن أحوال المسلمين المتدهورة.

[illegible] الله ؟؟!



فيقيمه الله بهم في الأرض. قال تعالى ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[1].

* * *

(١) سورة محمد (٣٨).

أهم المراجع

١ - **إحياء علوم الدين** - أبو حامد الغزالي - دار المعرفة - بيروت.

٢ - **الأخلاق الإسلامية وأسسها** - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - دار القلم - دمشق - ط٢ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣ - **الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار** - النووي - دار عمر بن الخطاب - الأسكندرية - مصر.

٤ - **آفات على الطريق** - د. السيد نوح - دار الوفاء - مصر.

٥ - **بصائر للمسلم المعاصر** - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦ - **تاريخ عمر بن الخطاب** - أبو الفرج ابن الجوزي - مكتبة السلام العالمية - مصر.

٧ - **الترغيب والترهيب** - المنذري - مكتبة الدعوة الإسلامية - مصر.

٨ - **تهذيب مدارج السالكين لابن القيم** - عبد المنعم صالح - وزارة العدل - الإمارات - ١٤٠٢هـ.

٩ - **حقيقة التوحيد** - د. يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة - مصر.

١٠ - **حياة الصحابة** - محمد يوسف الكاندهلوي - مكتبة الدعوة الإسلامية - مصر.

١١ - **دعاة لا قضاة** - حـ[illegible]ـيبي - دار التوزيع والنشر الإسلامية - مصر.

١٢ - **ذم الهوى** - أبو الفرج ابن الجوزي.

١٣ - **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين** - النووي - دار الوفاء - مصر.

١٤ - **رسالة المسترشدين** - تحقيق د. عبد الفتاح أبو غدة - دار السلام - مصر - ط٤ - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م..

١٥ - **الزهد** - عبد الله بن المبارك - دار الكتب العلمية بيروت.

١٦ - **السيرة النبوية عبد الملك بن هشام** - دار التراث العربي - تحقيق د. أحمد حجازي السقا.

١٧ - **سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز** - أبو الفرج ابن الجوزي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ - ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

١٨ - **شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة** - د. محمد علي الهاشمي - دار البشائر الإسلامية - بيروت.

١٩ - **شرح الحكم العطائية** - د. سعيد رمضان البوطي - مجموعة أشرطة.

٢٠ - **شرح صحيح مسلم** - النووي - نشر محمود توفيق - مصر - ١٣٤٩هـ

٢١ - **صفة الصفوة** - أبو الفرج ابن الجوزي - دار المعرفة - بيروت - ط٢ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٢ - **صيد الخاطر** - أبو الفرج ابن الجوزي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الكليات الأزهرية - مصر - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٣ - **الغنية** - عبد القادر الكيلاني - الحلبي - مصر.

٢٤ - **الفوائد** - ابن قيم الجوزية - المكتبة القيمة - مصر.

٢٥ - **في ظلال القرآن** - سيد قطب - دار الشروق - مصر - ط١٢ - ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٦ - **اللطائف والطب الروحاني** - أبو الفرج ابن الجوزي - تحقيق عبد القادر احمد عطا - مكتبة القاهرة - الأزهر - مصر.

٢٧ - **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية** - جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد - دار الإفتاء - السعودية -

تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ.

٢٨ - **محنة الإمام أحمد بن حنبل** - للمقدسي - تحقيق د. عبد الله التركي - دار هجر - مصر - ط١ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٩ - **مختصر تفسير ابن كثير** - محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت ط٧ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١م.

٣٠ - **مشكلات الدعوة والداعية** - فتحي يكن - دار الرسالة - بيروت.

٣١ - **نظرات في إصلاح النفس** - حسن ال [illegible] - دار الإعتصام - القاهرة.

* * *

الفهـرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

* * *



العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية ب ٢ ت: ٣٦٢٣١٣-٣٦٢٣٦٤

مكتب القاهرة: مدينة نصر ١٢ ش ابن هانئ الأندلسي ت: ٦١٨١٣٧



دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت ٣٩١١٩١١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص.ب ١٦٣٦